3 me Année, No. 91.

Lundi-1-4-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
صـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٩١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ ذو الحجة سنة ١٣٥٣ — ١ ابريل سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

الفردية علتنا الأصيلة

لا تزال الفردية أبين الصفات المميزة للعرب ؛ ولا تزال هذه الصفة أجلى ما تكون فى مصر ! فان المرء ليغالى فى فرديته حتى ليوشك أن يكون أمة وحده !

غلبت هذه الشيمة على العرب الأولين لقلة المرافق المشتركة ، وأثرة الطبيعة الشحيحة ، ووحدة الحياة الرتيبة ، واستقلال النفس القوية ، فالرجل منهم كان يحصر الدنيا فى خيمته ، ويجمع العالم فى قبيلته ، ثم يختصر القبيلة فى نفسه فيجعلها قاعدة لتمثاله وإطاراً لصورته ! فهو لا يحيا حياة بهائم الأنعام تحمى ضعفها بالاجتماع ، وإنما يعيش عيش سباع الطير والوحش لا تُشْبِل على أفراخها وأجرائها إلا ريثما ترتاش وتَضْرى . فلما اختيروا إلى الدعوة الكبرى استجابوا لقوة القوى ، واطمأنوا لألفة الروح ، واستَجرُّوا لحكم الجماعة ، حتى بأنوا رسالة الله ، ثم تحرك فيهم الهوى الموروث ، وتيقَّظ الطبع الأثِر ، فهبَّت الفردية تحلل العقدة وتشتت الوحدة ، حتى قسّمت الوطن بلاداً ، ومزقت الشعب أفراداً ، خضعوا لسلطان المغير وداُنوا لقوة الغاصب !

***

فهرس العـــدد

لا تزال هذه الفردية القبيحة وتوابعها من شهوة الرياسة وحب الاستئثار ودناءة الحرص ، تُقطّع أوشاج المجتمع فى أقطار العرب ، فتفسد كل موضوع ، وتبطل كل مشروع ، وتُشعِّث كل ألفة . وفى مصر أحد تلك الأقطار تستطيع أن تعرض جملة أمرها على رأيك فتجد المثال الذى لا يبعد والحال التى لا تختلف . فالسياسة هنا وهناك لا تكاد أحزابها تقوم على فكرة جامعة ومبدأ متحد ، إنما هى فرد يَنْبُه فى الخير أو ينبغ فى الشر ، فتأتلف عليه الأفراد المختلفون ، فيكون منهم مكان النظام من العقد ، يمسكه مادام حياً قويا ، فاذا ما انقطع ذهب الحب أبَادِيدَ . والاقتصاد هنا وهناك جهود فردية تخشى المنافسة وتتعجل الربح وترضى بالنصيب الأخس ، لأن الفردية قتلت فينا الثقة فلا نساهم فى رأس مال ، وأضعفت شعورنا بالخير العام فلا نشارك فى مشروع ، ونشرت بيننا داء الحسد فلا نستقيم على رأى جميع ؛ وما النهضة الاقتصادية الحديثة إلا نبوغ فرد أنس الناس بناحيته ، واطمأنوا إلى كفايته ، فأخلدوا إليه بالثقة ، وألقوا فى يديه المقاليد . والأدب هنا وهناك لا تزال دوافعه فردية ومراميه خاصة ؛ فالقصيدة عواطف الشاعر لا تكاد تخرج عن دخائل نفسه ومدارج حسه ، والمقالة خواطر الكاتب لا تكاد ترمى إلى غرض محدد ولا تجرى فى مذهب معين ، والأغنية لواعج المغنى فلا تعبر عن المعانى العامة ، ولا تهتف بالأمانى المشتركة . أما الملاحم القومية ، والقصص الاجتماعية ، والأناشيد الشعبية ، فتلك أغراض لا تزال منابعها ناضبة ودوافعها دخيلة

يأخذ المرء حال من الوجد أو الشوق أو الطرب ، فيجد من القصائد والأناشيد ما يترجم هذه الحال ، فيدندن ويتغنى ؛ وتكون الجماعة منا فى مجمع من المجامع ، أو ملهى من الملاهى ، أو موكب من المواكب ، فيأخذها انفعال مشترك من ابتهاج أو احتجاج أو افتخار أو تحمس ، فتريد أن تعبر عن ذلك بقول واحد وصوت واحد ونغم واحد ، فلا تجد إلا خلجات تتوقد ، ونظرات تتردد ، ثم سكونا بارداً كمرق المبهوت الخجل ! حتى السلام الملكى الرسمى نعرفه نغما ولا نعرفه كلما كأنما وضعوه لأمة بكماء !

كذلك الفن هنا وهناك لا يجد من حَرَج الفردية مكاناً للتنوع ولا مجالا للتقدم ، فالتصوير كالشعر قلما يتعدى صورة الفرد وعاطفته ، والرقص حتى من الرجال لا يكون إلا من فرد ، ولا يظهر من هذا الفرد إلا متعاقباً على أجزاء خاصة من جسمه ، كالعجز والبطن والثديين والعنق ، فهو حركات متقطعة مستقلة كأبيات القصيدة القديمة لا تربطها علاقة ولا تجمعها وحدة ! والغناء والموسيقى يقعان دائماً على أصوات مفردة ، وتقاسيم مرددة ، وفرديات (مونولوجات) متشابهة ، ومعان متكررة ! فليس لنا — حتى ولا للقرويين — غناء جَمَاعى ولا رقص جَمَاعى يعبران عن شعور الجماعة ساعة الطرب أو الغضب أو النصر بكلمات موقَّعة وحركات موزونة ؛ ولكل أمة من أمم الأرض أفنان شتى من ذلك حتى الزنوج !

عددنا الممتاز

بمناسبة رأس السنة الهجرية

سيدور معظمه على رسالة الاسلام

ومجد العرب ومدنية الشرق

من محرروه ؟ متى موعده ؟

الجواب فى العدد القادم

* * *

إن الفردية تعلو فتكون الاستبداد ، وتسفل فتكون الأنانية ؛ وإن الجمعية (١) ترتفع فتكون الانسانية ، وتنخفض فتكون العصبية ؛ وإن بين الانسانية والعصبية شعباً يعز ، وأمة ترقى ، وذكراً يبقى ، وأثراً يخلَّد ؛ ولكن بين الاستبداد والأنانية تحكّم الهوى وشقاء العيش وذل الأبد . فاذا رأيت الأحزاب تتناقض وتنحل ، ومشروعات الشباب تضعف وتعتل ، وإدارة الحكومة تسوء وتختل ، فابحث عن علة ذلك — غير مخطئ — فى هذه الفردية حين تعلى فتستبد ، أو حين تتدلى فتستأثر . فلولا هذا الطبع الأصيل الذى طغى على الشعور ، وبغى على الفطرة ، لتنبه فينا الضمير الاجتماعى فأخلصنا للأمة كما نخلص للاسرة ، وعملنا فى الديوان كما نعمل فى البيت ، وأحببنا لعامة الناس ما نحب لخاصة النفس ؛ ولكن الفردية داء دخيل لا يحسمه إلا الدين الذى حسمه عن نفوس العرب حين اتبعوه ، فهل إلى رجوع اليه من سبيل ؟

احمد حسن الزيات

(١) الجمعية مصدر صناعى يقابل الفردية

تاريخ يتكلم ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أيعرفُ القراءُ أن في الأحلام أحلاماً هي قِصَصٌ عقليةٌ كاملةُ الأجزاء، مُحكَمةُ الوضع مُتَّسقةُ التركيب بديعةُ التأليف، يحمل المرءَ حين ينام كأنه أسلم نفسه إلى (شركة من الملائكة)، تَسيح به في عالمٍ عجيبٍ كأنما سُحِرَ فتحوَّل إلى قصة؟

إن يكنْ في القراء من لا يعلمُ هذا فليعلمْه مني؛ فإني كثيراً ما أكتبُ وأقرأ في النوم، وكثيراً ما يُلقَى عليَّ من بارع الكلام، وكثيراً ما أرى ما لو دوَّنْتُه لَعُدَّ من الخوارق والمعجزات

وهذه القصةُ التي أرويها اليوم، كانت المعجزةُ فيها أني مشيتُ في التاريخ كما أمشي في طريق ممتدة؛ فتقدمتُ إلى أهل سنة ٣٩٥ للهجرة وما يليها، فمشيتُ معهم وتَخَبَّرتُ من أخبـــارهم، ثم رجعتُ إلى زمني لأقصَّ ما رأيتُه على أهل سنة ١٣٥٣ ...

أمسيتُ البارحةَ كالمغموم في أحوالٍ ثقيلة على النفس ما تنطلقُ النفس لها، أوَّلُها سوءُ الهضم؛ ومتى كان البدءُ من هُنا لم تكن الحركة في النفس إلا دائرةً، تَذهبُ ما تذهب ثم لا تنتهي إلا في سوء الهضم عينه. جلستُ في النديِّ الذي أسْمُرُ فيه أحياناً، فكان لجوِّه وزنٌ أحسستُه كما يحسّ الغائصُ في الماء ثقلَ الماءِ عليه؛ ودخّنتُ الكَرْكَرَة[1] فلم تكن هواءً ودخاناً يَترَوَّحُ، بل كانت من ثقلها كالطعام يدخل على الطعام؛ ونظرتُ ناحيةً فأخذتْ عيني رجلاً فِيليَّ الخِلْقة، مُنْطادَ البطن، كأنما نُفِخَ بطنُه بالآلات، يحمل منه مقدار أربعةٍ من بطون البَدِينات الحوامل، كلٌّ منهن في الشهر التاسع من حَمْلها ...؛ وكان مني إلى كل هذا البلاء خمسُ صحفٍ يوميّة أُريدُ قراءتَها ... !

(١) الكركرة: اسم وضعناه (للشيشة) أو النارجيلة، أخذاً من صوتها، كما صنع العرب في تسميتهم (القطا) أخذاً من صوت هذا الطير، وكما هي طريقتهم؛ وتجمع الكركرة: كراكير، بالياء للخفة

ثم جئتُ إلى الدار، والمعركةُ حاميةٌ في أعصابي؛ وما كان سوءُ الهضم مُنَوِّمَةً فيدعوَ إلى النوم، فدخلتُ بيتَ كُتبي وأردتُ كتاباً أيَّ كتابٍ تناله يدي؛ فخرج لي كتابٌ في خرافات الأوَّلين وأساطيرهم وهَذَيانهم وسوءِ هضمِهم العقليّ.. كالكلام عن أدُونيس وأرطاميس وديونيس وسميراميس وإيسيس وأنوبيس وأزغتيس ... فاستعذتُ بالله وقلت: حتى الكتبُ لها في هذه الليلة أعصابٌ قد نالَها الثِّقْلةُ والألم. ؟

وبات الليلُ يقظان، وبقيتُ مُتَمَلْمِلاً أتقلَّبُ حتى أخذ الصداعُ في رأسي، فانقلب التعبُ نوماً، وجاء من النوم تعبٌ آخر، وقُذِفتُ إلى عالم الأحلام في قنبلة، تستقرُّ بي حيث تريد لا حيث أريد:

* * *

ورأيتُني في قوم لا أعرف منهم أحداً، قد اجتمعوا جماهير، وسمعتُ قائلاً منهم يقول: «الساعةَ يمرُّ مولانا العالي» فقلت لمن يليني: «مَن يكونُ مولانا العالي؟» قال: «أوَ أنتَ منهم؟» قلت «ممَّن؟» فألهاه عن جوابي تَشَوُّفُ الناس وانصرافُهم إلى رجلٍ أقبلَ راكباً حماراً أشهب؟ فصاحوا: «القمر القمر[1]» ورفع الرجلُ الذي يُناكبُني صوتَه يقول: «البركاتُ والعَظَماتُ لك يا مولانا العالي!»

قلت: «إنّا لله! لقد وقعتُ في قوم من الزنادقة، يعارضون «التحياتُ والصلواتُ والطيِّباتُ لله»؛ ثم مرَّ صاحب الحمار بحذائي، وغَمَزه الرجلُ عليَّ، فقال: «ما بالُك لا تقول مثلَه؟» قلت: أعوذ بالله من كفرٍ بعد إيمان؛ فكأنما أراد أن يلطمني فرفع يده، فصحتُ فيه: «كما أنتَ ويلكَ وإلا قبضتُ عليك وأسلمتك للبوليس، وشكوتك الى النيابة، ورفعتك الى محكمة الجُنَح!»

قال: «ماذا أسمع؟ الرجلُ مجنونٌ فخذوه!» وأحاط بي جماعةٌ منهم، ولكنه تَرَجَّل عن حماره وأخذ بيدي ومشينا، فقلت: «من أنت يا هذا؟» قال: «أراكَ من غير هذا البلد؛ أما تعرف الحاكم بأمر الله؟ فأنا هو.» قلت: «انظر ويحكَ ما تقول؛ فما أظنُّكَ إلا مَمْروراً؛ لقد كتبتُ أمس كتاباً الى

(١) القمر: اسم ذلك الحمار، وسيمر ذكره في القصة

مجلة (الرسالة) أرّخته ١٣ من ذى الحجة سنة ١٣٥٣ و ١٨ من مارس سنة ١٩٣٥ ، وأرسلتُ به مقالة (الخروفين) . . . »

قال : ماذا أسمع ؟ نحن الآن فى سنة ٣٩٥ ؛ فالرجل مجنون ، أو لا فأنت أيها الرجلُ من معجزاتى . لقد جئتُ بكَ من التاريخ ، فسترى وتكتب ، ثم تعود إلى التاريخ فتكون من معجزاتى ، وتقصُّ عنى وتشهد لى . . . ! »

قلت : « فانى أعرف أعمالك إلى أن قُتلتَ فى سنة ٤١١ ...! »

قال : « أوَ إلـهٌ أنت ، فتَخلقَ ستَّ عشرةَ سنةً بحوادثها؟ لقد كدتَ من أَفنِك وغباوتك تُفسد علىّ دعوى المعجزة ! »

وهاج الصداعُ فى رأسى ، وبلغ سوءُ الهضم حدّه ، واشتبكتْ سيئاتُ إيسيس وأتوبيس الخ بسين إبليس ، ومرتْ بين كل هذا حوادثُ الطاغية المعتوه المتجبّر ، فرأيته يبتدع فى كل وقت بِدَعاً ، ويخترع أحكاماً يُكره الناس على أن يعملوا بها ، ويعاقبهم على الخروج منها ، ثم يعود فينقض أمره ، ويعاقب على الأخذ به ، كأن الذى نقَض غيرُ الذى أبرَم ، وكأنه حين يتبلد فيُعجزه أن يخترع جديداً — يجعل اختراعَه إبطالَ اختراعه !

ورأيته كأنما يعتدُّ نفسَه مُخَّ هذه الأمة ، فلابدّ أن يكون عقلاً لعقولها ، ثم لا بدّ أن يَستعلىَ الناسَ ويستبدَّ بهم استبدادَ الشريعة فى أمرها ونهيها ، فكانت أعمالُه فى جملتها هى نقضَ أعمال الشريعة الاسلامية ، وظنَّ أنه مستطيعٌ محوَ ذلك العصر من أذهان الناس وقَتلَ التاريخ الاسلامى بتاريخ قاتلٍ سفاك

وسوّل له جنونُه أنه خُلق تكذيباً للنبوة ؛ ثم أفرَطَ عليه الجنون فحصَّل فى نفسه أنه خُلق تكذيباً للألوهية . وفى تكذيبه للنبوّة والألوهية يحمل الأمة بالقهر والغلبة على ألا تصدّق إلا به هو ؛ وفى سبيل إثباته لنفسه صنَع ما صنع ، فجاء تاريخه لا ينفى ألوهيةً ولا نبوّة ، بل ينفى العقل عن صاحبه ؛ وجاء هذا التاريخ فى الاسلام ليتكلم يوماً فى تاريخ الاسلام . . .

* * *

رأيتنى أصبحتُ كاتباً لهذا الحاكم ، فجعلتُ أشهد أعماله وأدوّن تاريخه وأقبلتُ على ما أفردَني به ، وقلتُ فى نفسى : « لقد وضعتنى الدنيا موضعاً عزيزاً لم يرتفع إليه أحد من كتّابها وأدبائها ، فسأكتب عن هذا الدهر بعقلٍ بينه وبين هذا الدهر ٩٦٨ سنة صاعدة فى العلم

ودوّنتُ عشرةَ مجلّدات ضخمة انتهيتُ وأنا أحفظها كلها ، فاذا هى جُملٌ صغيرة ، جُملَ الحُلم كلٌّ تَنبثق منها سفراً ضخماً كما يُخيَّل للنائم أنه عاش عمراً طويلا وأحدث أحداثاً ممتدّة ، على حين لا تكون الرؤيا إلا لحظة

وهذه هى المجلّدات التى قلتُ : إن التاريخ يتكلَّمُ بها فى التاريخ . . .

المجلد الأول

ابتُلِىَ هذا الطاغيةُ بنقيصتين : إحداهما من نفسه والأخرى من غيره ؛ فأما التى من نفسه فانى أراه قد خُلق وفى مُخّه لُفافةٌ عصبية من يهوديّة جدّه رأس هذه الدعوة ؛ فهو الحاكم بن العزيز بن المعز بن القاسم بن المهدى عُبيد الله ، ويقولون إن عبيد الله هذا كان ابن امرأة يهودية من حدّاد يهودى ، فاتفق أن جرى ذكر النساء فى مجلس الحسين بن محمد القدّاح فوصفوا له تلك المرأة اليهودية ، وأنها آيةٌ فى الحُسن ، وكان لها من الحداد ولد ، فتزوّجها الرجل وأدّبَ ابنها وعلّمه ، ثم عرّفه أسرار الدعوة الفَلَكية وعهد اليه بها

ومن بعض اللفائف العصبية فى المخ ما ينحدر بالوراثة مطبوعاً على خيره أو شره ، لا بدّ للمرء فيه ولا حيلة له فى دفعه أو الانتفاء منه ، فيكون قدَراً يتسلسلُ فى الخلائق ليُحدثَ غاياته المقدورة ، فمتى وقع فى مخ انسان فالدنيا به كالحُبلى ولابد أن تتمخّض عنه

هذه اللُّفافة اليهودية فى مخ هذا الطاغية ستحقّق به قولَ الله تعالى : « لتجِدنّ أشدّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهود . » فهو لن يكونَ العدوّ للاسلام دون أن يكون الأشدّ فى هذه العداوة ، ولن يكون فيها الأشدّ حتى يفعل بها الأفاعيل المنكرة . وما أرى هذه المآذن القائمة فى الجو إلا تخرق بمنظرها عينيه من بغضه للاسلام وانطوائه على عداوته ؛ فويلٌ لها منه !

وأما النقيصة الثانية فقد ابتُلِىَ بقوم فتنوه بآرائهم ومذهبهم ، وهم حمزة بن على ، والأخرم ، وفلان ، وفلان . . . وقد لفّقوا للدنيا مذهباً هو صورة عقولهم الطائشة ، لايجىء إلا للهدم ، ثم لا يضع أولَ معوله إلا فى قبة السماء ليهدمها . . . !

ولو أنا جمعت هذا المذهب فى كلة واحدة لقلتُ : هو حماقةٌ حمقاء تريد إخراج الله من الوجود لإدخال الله فى بعض الطغاة !

ويتلقبون فى مذهبهم بهذه الألقاب: العقل ، الأرادة ، الامام ، قائم الزمان ، علة العلل . . . . وهذه هى الشيوعية بعينها ، تعمل على هدم فكرة الألوهية وإلحاقها بالخرافة ؛ كأن القائم بهذا المذهب هو عقل الناس وإرادتهم ، كرهوا أم رضوا ، فلا إرادة لهم معه ولا عقل ، وهو الزمنُ فيصبغ الزمنَ بما شاء ، ويجعله كيف شاء ، لأنه القائم به وعلة العلل فى سياسته وتدبيره

شيوعية آثمة ، كَبُرت فى حماقتها أن تقوم بجنونٍ واحد ، فلا تقوم إلا باثنين معاً : جنون العقل ، وجنون السيف !

المجلد الثانى

أظهرَ الطاغيةُ أن الله يؤيد به الأسلام ، ليتألف الجندَ والشعب ويستميلهم إليه ، وكان فى ذلك لئيمَ الكيد دنىء الحيلة يهودىَّ المكر . فأمر بعمارة المدارس للفقه والتفسير والحديث والفُتْيا ، وبَذَل فيها الأموال ، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ، وبالغ فى إكرامهم والتوسعة عليهم والتخضع لهم ، ودخل فى ظلال العمائم . . . وأحضر لنفسه فقيهين مالكيين (اثنين لا واحد) يعلّمانه ويفقّهانه ، وكان أشبه بمريد مع شيخ الطريقة يتسمّح به ويتيمّن ؛ أشرف ألقابه أنه خادم العمامة الخضراء ، وأسعدُ أوقاته اليومُ الذى يقول له فيه الشيخ : رأيتُك فى الرؤيا ورأيت لك . . . !

وكانت هذه المعاملة الأسلامية الكريمة من هذا الطاغية — هى بعينها ربا الثقافة اليهودية فى مخّه ؛ تصلح باقراض مائة ، وفيها نية الخراب بالستين فى المائة ... ! فانه ما كاد يتمكن من الناس ويعرف إقبالهم عليه وثقتهم به ، حتى طلبت الثقافةُ رأس المال والرِّبا ؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخرابها ، وأبطلَ العيدين وصلاةَ الجمعة ، وقتلَ الفقهاءَ وقتلَ معهم فقيهيه وأستاذَيه ، وعادَ كالمريد النافق مع شيخ الطريقة ، يقول فى نفسه : إن هناك ثلاثةً تعمل عملاً واحداً فى الصيد : الفخّ ، والعمامة ، واللحية ... !

إن هذا الطاغيةَ ملكٌ حاكم ، يستطيع أن يجعل حماقته شيئاً واقعاً ، فيقتلَ علماء الدين بأهلا كهم ، ويقتلَ مدارس الدين بإخرابها ، ولو شاء لاستطاع أن يشنق كل ذى عمامة من سواد المسلمين فى عمامته . ويبلغ من كفره أن يتبجّح ويرى هذا قوةً ولا يعلم أنه لهوانه على الله قد جعله اللهُ كالذبابة التى تصيب الناس بالمرض ، والبعوضة التى تقتل بالحمّى ، والقملة التى تضرب بالطاعون ، فلو نخرتْ ذبابةٌ أو تبجحتْ قملةٌ أو استطالتْ بعوضةٌ لجاز له أن يطنَّ طنينه فى العالم . وهل فعلَ أكثرَ مما تفعل ؟

لقد أودى بأناس يقوم إيمانهم على أن الموت فى سبيل الحق هو الذى يخلدهم فى الحق ، وأن انتزاعهم بالسيف من الحياة هو الذى يضعهم فى حقيقتها ، وأن هذه الروح الأسلامية لا يطمسها الطغيانُ إلا ليجلوَها

إنه والله ما قتَل ولا شنقَ ولا عذّب ، ولكن الأسلام احتاج فى عصره هذا إلى قوم يموتون فى سبيله ، وأعوزه ذلك النوع السامى من الموت الأول الذى كان حياةَ الفكر ومادة التاريخ ، فجاءت القملة تحمل طاعونها ... !

لقد أحياهم فى التاريخ ، أما هم فقتلوه فى التاريخ ، وجاءهم بالرحمة من جميع المسلمين ، أما هم فجاءوه باللعنة من المسلمين جميعاً !

المجلد الثالث

يرى هذا الطاغية أن الدين الأسلامى خرافة وشعوذة على النفس ، وأن محو الأخلاق الأسلامية العظيمة هو نفسه إيجادُ أخلاق ، وأن الأسلام كان جريئاً حين جاء فاحتلّ هذه الدنيا ؛ فلا يطرده من الدنيا إلا جراءةُ شيطان كالذى توقح على الله حين قال : « فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين . » ولهذا أمر الناس بسبِّ الصحابة ، وأن يكتتب ذلك على حيطان المساجد والمقابر والشوارع !

أخزاه الله ! أهى رواية تمثيلية يلصق الأعلانَ عنها فى كل مكان ؟ لو سمع لسمع المساجد والمقابر والشوارع تقول : اخزاه الله ... !

المجلد الرابع

هذا الفاسقُ لا يركبُ إلا حماراً أشهب يسمّيه : (القمر) ، وقد جعل نفسه محتسباً لغاية خبيثة ؛ فهو يدور على حماره هذا فى الأسواق ومعه عبدٌ أسود ، فمن وجده قد غشَّ أمرَ الأسود

ف ... ! ووقف ينظر ويقول للناس : انظروا ... ! ومن غَلَبة الفسوق على نفسه وعلى شيعته أن داعيته (حمزة بن على) نوَّه بالحمار فى كتابه وأومأ إليه بالثناء ، لخصال : منها أن ... ! وكتبَ حمزةُ هذا فى بعض رسائله : أن ما يرتكبه أهل الفساد بجوار البساتين التى يمرُّ بها (الفاسق) من المنكر والفحشاء — إنما يُرتكب فى طاعته ... !

هذه طبيعة كلِّ حاكم فاسق ملحد ، يرى فى نفسه رذائله عُريانةً فلا يكون كلامه وعمله وفكرُه إلا فُحشاً يتعرَّى ؛ وإن فى هذا الرجل غريزةَ فسقٍ بهيمية متصلة بطور الحيوان الانسانىّ الأول ؛ فما من رَيْب أن فى جسمه خليَّةً عصبية مهتاجة ، مازالت تسبح بالوراثة فى دماء الأحياء ، متلقِّفةً على خصائصها حتى استقرّت فى أعصاب هذا الفاسق ، فانفجرت بكل تلك الخصائص

ولست أرى أكثرَ أعماله ترجع فى مردِّها إلا إلى طغيان هذه الغريزة فيه ؛ فهو يحاول هدم الاسلام ، لأنه دين العفة ، ودينُ صَوْنِ المرأة ، يُلزمها حجابَ عفّتها وإبائها ، ويمنعها الابتذالَ والخلاعة ، ويعينها أن تتخلص ممن يشتهيها ولو كان الحاكم ... إنه يمقت هذا الدين القوىّ كما يمقتُ اللصُّ القانون ؛ فهو دينٌ يثقُل على غريزته الفاسقة ، ولكلِّ غريزة فى الانسان شعور لا تهنأ لها إلا أن يكون حراً حتى فى التوهم ؛ وهل يُعجب السكيرَ شيءٌ أو يرضيه أو يلذه كما يعجبه أن يرى الناسَ كلهم سُكارى ، فينتشى هو بالخمر ، وتسكر غريزتُه برؤية السكْر

ومازال رأىُ الفُسّاق فى كل زمن أن الحرية هى حريةُ الاستمتاع ، وأن تقييد اللذة إفسادٌ للَّذَّة

المجلد الخامس

يزعم الطاغية أنه يُعزُّ قومه — وما أراه يعزهم — ولكنه يمتحن ذلّهم وضعفهم وهوانهم على الأمم ؛ فهو يتجرأ شيئاً فشيئاً مُتنظِّراً ما يتسهَّل مترقباً ما يمكن ؛ وهو يرى أن أخلاقنا الاسلامية هى أمواتُنا دفنوا أنفسهم فينا ؛ فمن ذلك يهدمُ الأخلاق ويظنّ عند نفسه أنه يهدم قبوراً لا أخلاقاً

ولقد سَخِر منه المصريون بنكتةٍ من ظَرفهم البديع ، وجاءوه من غريزته فصنعوا امرأةً من الورق الذى يشبه الجلد ، وألبسوها خُفَّها وإزارها ، حتى لايشكّ من رآها أنها آدمية ، ثم وضعوا فى يدها قصّة وأقاموها فى طريقه ؛ فلما رآها عَدَلَ إليها وأخذ من يدها القصةَ وقرأها ، فاذا فيها سَبٌّ له ولآبائه ، وسخرية من جنونه ورُعونته المضحكة ؛ فغضب وأمر بقتل المرأة ؛ فكانت هذه سخريةً أخرى حين تحقّق أنها من الورق ، وأخذته النكتةُ الظريفة بمثل البرق والرعد ؛ فاستشاط وأمر عبيده من السودان بتحريق الدور ونهبِ ما فيها وسَبْى النساء والفجور بهن ؛ حتى جاء الأزواج يشترون زوجاتهم من العبيد بعد أن طارت الزوبعة السوداء فى بياض الأعراض

اندلعتْ ثورة الفجور فى المدينة ، لا من العبيد ، ولكن من الحيوان العتيق المستقرّ فى هذا الطاغية

المجلد السادس

وهذه رُعونةٌ من أقبح رعوناته ، كأن هذا الحيوان لايحسب نساءَ الأمة كلَّها إلا نساءه ، فيأمرهن بأمر امرأته ، وكأن النساء فى رأيه إنْ هنّ إلا استجاباتٌ عصبيةٌ تُطلق وتُرد

إن لموجةِ الفسقِ فى الغريزة الطاغية جَزْراً ومداً يقعان فى تاريخ الفُسّاق ؛ فهذا الطاغية قد جَزرتْ فيه الموجة ، فأمر أن يُمنع النساءُ من الخروج ليلاً ونهاراً ، لاتطأ أرضَ المدينة قدمُ امرأة ؛ وأمرَ الخفّافين ألا يصنعوا لهن الأخفاف والأحذية ؛ ولما علم أن بعض النساء خرجن إلى الحمامات هدَم الحمامات عليهن !

ولو مدت الموجةُ فى نفس الفاسق لفَرضَ على النساء الخروجَ والاتصالَ بالرجال والتعرض للاباحة

إن الصلاح والفساد كلاهما فساد ، مالم يكن الصلاح نظافةً فى الروح وسمواً فى القلب

المجلد السابع

يزعم الطاغيةُ أنه سيهدم كل قديم ، وإنى لأخشى والله أن يأمر الناسَ فى بعض سَطَوات جنونه : أن كل من كان له أبٌ أو أم بلغ الستين فليقتله لتخلص الأمة من قديمها الانسانى ... !

كأنه لايعرف أنه إنما يتسلط على أيام معاصريه لاعلى التاريخ ويحكم على طاعة قومه وعصيانهم لاعلى قلوبهم وطباعهم وميراثهم من الأسلاف ؛ فما هو إلا أن يهلك حتى ينبعث فى الدنيا شيئان : نَتْن رمته فى بطن الأرض ، ونَتْن أعماله على ظهر الأرض

إن هذا الرجلَ المسلط كالغبار المستطار ، لا يُكنَس إلا بعد أن يقع . . .

ولقد رأى المأفون أن أكل الناس الملوخيّا الخضراء والفقاع ، والتُّرمس والجرجير ، والزبيب والعنب — هوًى قديمٌ في طباع الناس ، فنهى عن كل ذلك ، لا يُباع ولا يُؤكل ، وظهر على أن جماعة باعوا أشياءَ منها فضربهم بالسياط ، وأمر فطيفَ بهم في الأسواق ، ثم ضَرب أعناقهم ؛ كأن الذي يحمل الملوخيّا الخضراء على رأسه ليبيعها يلبس عمامة خضراء . . .

أهذا — وَيْحه — تجديدٌ في الأمة ، أم تجديدٌ في المعدة . . . ؟

المجلد الثامن

لا يرضى الطاغيةُ إلا أن يمحق روحانية الأمة كلها ، فلا يترك شيئاً رُوحانياً يكون له في أعصاب الناس أثرٌ من الوقار . وعن يستظهر إذا مُحقتْ روحانيةُ الأمة وأشرفت نَزْعتها الدينية على الانحلال ؟ كأنه لا يعلم أن حقيقة الوجود لأمةٍ من الأمم إنما تُستمدُّ من إيمانها بالمثل الأعلى الذي يدفعها في سِلمها إلى الحياة بقوّة ، كما يدفعها في حربها إلى الموت بقوة ؛ وكأنه لا يعلم أن التاريخ كله تُقرره في الأرض بضعةُ مبادئ دينية

هذا الحاكم الأخرق هو عندي كالذي يقول لنفسه : لم أستطع أن أفتح دولة ، فلأفتحْ دولةً في مملكتي . . . لقد أمر بهدم الكنائس والبيع ، حتى بلغ ما هدم منها ثلاثين ألفاً ونيّفاً

أيّ جنونٍ أسخف جنوناً من هذا الذي يحسب النفوسَ الانسانية كالأخشاب ؛ تَقبل كلُّها بغير استثناء أن تُدقّ فيها المسامير . . . ؟

سيعلم إذا نَشِبتْ حربٌ بينه وبين دولة أخرى ، أنه كسرَ أشدّ سيوفه مضاءً حين كسر الدين !

المجلد التاسع

هذه هي الطامة الكبرى ؛ فلا أدرى كيف أكتب عنها : لقد تطاول الجنون إلى الألوهية فادعاها وصار يكتب عن نفسه : باسم الحاكم الرحمن . !

لو كان أغبى الأغبياء في موضعه لاتقى شيئاً ، لا أقول تقوى الدين والضمير ، ولكن تقوى النفاق السياسيّ ؛ فكان يحمل الناس أن يقولوا عنه : « أبانا الذي في الأرضين . . . ! »

وإلا فأيّ جهل وخبط وأيّ حُمق وتهوُّر ، أن يكون إلـهٌ على حمار ، وإن كان اسم حماره القمر !

المجلد العاشر

سيأخذه الله بامرأة ؛ ولكل شيءٍ آفةٌ من جنسه ؛ لقد بلغ من وقاحة غريزته أن اتّفك على أخته الأميرة (ستّ المُلك) ، ورماها بالفاحشة وهي من أزكى النساء وأفضلهن ، واتهمها بالأمير (سيف الدين بن الدّوّاس) وقد علمتُ أنها تُدبّر قتله ، وأنها اجتمعت لذلك بسيف الدين . فسأمسك عن الكتابة في هذا المجلد ، وأدع سائره بياضاً حتى أذهب اليهما فأعينهما بما عندى من الرأى ، ثم أعود لتدوين مايقع من بعد . . .

* * *

ورأيت أني اجتمعت بهما وواطأتُنا إليّ ، فأخذنا ندير الرأى :

قالت الأميرة لسيف الدين فيما قالته : « والرأى عندى أن تُتبعه غلماناً يقتلونه إذا خرج في غدٍ إلى جبل المقطم ، فانه ينفرد بنفسه هناك ! »

فقلت أنا : « ليس هذا بالرأى ولا بالتدبير »

قالت : « فما الرأى والتدبير عندكَ ؟ »

قلت : « إن لنا علماً يسمونه (علم النفس) ، لم يقع لعلمائكم ، وقد صحّ عندي من هذا العلم أن الرجل طائش الغريزة مجنونها ، وأن الأشعة اللطيفة الساحرة التي تنبعث من جسم المرأة ، هي التي تنفجر في مخه مرّةً بعد مرة ؛ فاذا خَبتْ هذه الأشعة ، وبطلت الغريزة — بطلت دواعي أعماله الخبيثة كلها وكفّ عن محاولته أن يجعل الأمة مملوءةً من غرائز جسمه وشهواته لا من فضائلها ودينها . فلو أخذتم برأيي وأمضيتموه فانه سينكر أعماله إذا عرضها على نفسه الجديدة ، وبهذا يُصلح ما أفسد ، وتكون حياتُه قد نطقت بكلمتها الصحيحة كما نطقت بكلمتها الفاسدة ؛ فاذا . . . »

قال الأمير : « فاذا ماذا ؟ »

قلت : « فاذا خصى . . . »

فضحكت ستُّ الملك ضحكةً رنّتْ رنيناً . قلت : « نعم إذا خصى هذا الحاكم ... » فقلبها الضحك أشدّ من الأول ورمتني بمنديل لطيف كان في يدها أصاب وجهي فانتبهت وأنا أقول

« نعم إذا خصى هذا الحاكم . . . . »

طنطا مصطفى صادق الرافعي

عصر الخفاء فى مصر الإسلامية

الحاكم بأمر الله

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ١ —

لبثت مصر منذ الفتح الاسلامى زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافية ، تتوارثها الخلافة أينما حلت ؛ الخلافة العامة ، فالأموية ، فالعباسية . غير أن مصر كانت منذ الفتح تتبوأ بين الولايات الخلافية مركزاً ممتازاً ؛ فقد اتخذت قاعدة لفتح إفريقية فالأندلس ، وكان ولاتها الأوائل ، ولاة لأفريقية ؛ وكانت أيضاً ، بموقعها الجغرافى ، وأهميتها العمرانيـة مطمح الزعماء المتغلبين يرون فيها ملاذاً منيعاً للحركات الاستقلالية ؛ فقـد وليها فاتحها عمرو بن العاص ولايته الثانية من قبل معاوية ، ولـكنه جعل منها وحدة شبه مستقلة ، وربمـا كان فى اهتمام عمرو بالبقاء فى ولاية مصر وسعيه لدى عثمان فى تحقيق غايته ، ثم اقتطاعها بعـد ذلك من معاوية ثمناً لحلفه ومؤازرته ما يحمل على الاعتقاد بأنه لو ثابت لهذا القائد العظيم والسـياسى البارع فرصة ملائمة لأنشأ بمصر لنفسه ولعقبه دولة أو خلافة مستقلة . ولما قام عبد الله بن الزبير بثورته على الخلافة الأموية ألفى فى انتزاع مصر طعنـة قوية يسددها لصدر الخلافة . ولمـا تألق نجم بنى العباس وسحقت الخلافة الأموية فى موقعـة الزاب ، فر مروان الثانى آخر الخلفاء الأمويين الى مصر ليتخذها قاعدة للدفاع عن ملـكه وتراث أسرته ؛ ولعله لم يكن بعيداً عن التفكير فى اتخاذ مصر بعد الشام معقلا للخلافة الأموية وقاعدة لاسترداد تراثها الذاهب لو كتب له الظفر على مطارديه

ولمـا ضعف سلطان الدولة العباسـيـة وتراخت قبضتها فى النواحى ، غدت مصر طعمة لطائفة من الحـكام الأقوياء ، يحكمونها باسم الخلافة ، ولـكن ينشئون بها دولا مستقلة ، لا تكاد تربطها بالخلافة أية روابط سياسية أو إدارية . وكان ابن طولون أول هذا الثبت من الحـكام الأقوياء ؛ قدم مصر والياً من قبل الخليفة المعتز سنة ٢٥٤ ﻫ (٨٦٨ م) ، فلم يلبث أن استخلصها بعزمه وقوة نفسه ، وأنشأ بها لنفسه ولعقبه دولة باذخة ترامت حدودها إلى شمال الشأم ؛ واستمرت مدى ربع قرن تنافس دولة الخلافة فى السلطان والبهاء ؛ فلما آنست الخلافة أن الانحلال قد سرى إلى الدولة الفتية ، بعثت جيوشها الى مصر غازية ، فاقتحمت مدينة القطائع عاصمة بنى طولون ، وقضت على تلك الدولة الزاهرة (٢٩٢ ﻫ — ٩٠٤ م) واسـتعادت الخلافة سلطانها على مصر عصراً آخر ؛ بيد أن هذا السلطان لبث عرضة للانتقاض بين آونة وأخرى ، وحاول ولاة أقوياء مثل تـكين وابن كيغلغ أن ينتزعوها لأنفسهم فى ظل الخلافة الاسمى ؛ حتى كانت ولاية محمد ابن طغج الأخشيد ، فاستطاع أن يقوم بمصر بمثل ما قام به ابن طولون ، وأن ينشىء بها دولة قوية مستقلة شملت الشأم والحرمين ، واستمرت مدى ثلاثين عاماً (٣٢٧ - ٣٥٨ ﻫ)

كانت مصر تتمتع إذاً بمركزها الممتاز بين ولايات الخلافة ؛ وكان هذا المركز الخاص يجعلها قبلة مختارة لأطماع المتغلبين وذوى النزعة الاستقلالية من الولاة والحـكام ؛ ويرجع هذا المركز الممتاز الى موقع مصر الجغرافى ونأيها عن مركز الخلافة العباسية ، ثم الى اتساعها وغناها ، وكونها تصلح بمواردها الخاصة لأن تكون مركز مملـكة مستقلة . ولم تخف على الفاطميين هذه الحقيقة يوم استطاعوا أن ينفذوا بدعوتهم الى إفريقية ، وأن ينشئوا بها دولتهم الأولى على أنقاض ملك الأغالبة ، فاتجهوا بأنظارهم إلى مصر ؛ وما كاد ملـكهم يستقر بأفريقية ، حتى بعث أبو عبيد الله المهدى أول خلفائهم جيوشه لافتتاح مصر ، فاسـتولت على برقة والاسكندرية ، ولـكنها ارتدت أمام جيوش مصر وجيوش الخلافة (٣٠٢ ﻫ) ؛ ثم غزت مصر ثانيـة ، واستولت على الاسكندرية والفيوم ، وأشرفت على عاصمة مصر ، ولـكنها ارتدت إلى المغرب كرة أخرى بعـد حروب طاحنة مع جيوش الخلافة (٣٠٧ ﻫ)

واستطاعت مصر أن تظفر مدى حين ، فى ظل الدولة الأخشيدية ، بقسط من الاسـتقرار والقوة ، ولـكن الخلافة الفاطمية الفتية لم تنبـذ مشروعها فى افتتاح ذلك القطر الشاسع الغنى ، وبعث القائم بأمر الله ثانى الخلفاء الفاطميين جنده الى

مصر ، فاستولوا على الاسكندرية مرة أخرى (٣٣٢هـ) ؛ وكانت الخلافة الفاطمية تشعر أنها ، وهى فى مركزها النائى بقفار المغرب تبقى بعيدة عن تحقيق غايتها السياسية والمذهبية الكبرى ، أعنى مناوأة خصيمتها الدولة العباسية والعمل على تقويض دعائمها ، وانتزاع زعامة الاســـلام منها ؛ وكانت مصر بتوسطها العالم الاسلامى ، وبما اكتمل لها من أسباب الغنى والخصب ، هى أصلح مركز لتحقيق هــذه الغاية ، وفيها دون غيرها تستطيع الخلافة الفاطمية أن تقيم ملكها السياسى على أسس قوية باذخة . فلما سرى الوهن الى الدولة الأخشيدية ، رأى الفاطميون فرصتهم قد سنحت ، وجهز المعز لدين الله الفاطمى حملة كبيرة لافتتاح مصر بقيادة مولاه وقائده أبى الحسين جوهر الصقلى ، فسار الى مصر ، واستولى عليها بعــد معارك يسيرة فى شعبان سنة ٣٥٨ (يوليه سنة ٩٦٠) ، وفى مساء نفس اليوم الذى تم فيه ذلك الفتح العظيم ، وضع جوهر بأمر سيده المعز خطط مدينة جديدة هى القاهرة ، ثم اختط بها الجامع الأزهر بعد أشهر قلائل ، وأعدت المدينة الجديدة لتكون منزل الخلافة الفاطمية ، وقاعدة ملكها السياسى ، كما أعد الجامع الجديد (الأزهر) ليكون منبراً للدعوة الفاطمية ورمزاً للأمامة الجديدة

***

وهكذا تحقق مشروع الخلافة الفاطمية فى افتتاح مصر ؛ ومنذ السابع من رمضان سنة ٣٦٢هـ (منتصف يونيه سنة ٩٧٣) وهو تاريخ مقدم المعز لدين الله إلى مصر ، تغــدو القاهرة منزل الخلافة الفاطمية ، بدلاً من رقادة والمهدية ، وتغدو مصر معقل الخلافة الفاطمية وملاذها بدلاً مــن المغرب . فلم تكن مصر للفاطميين غنماً سياسياً فقط ، ولكنها غدت أيضاً معقلاً للدعوة الشيعية التى لبث بنو العبــاس يطاردونها زهاء قرنين ، والتى بدأت ظفرها الســياسى بافتتاح المغرب ؛ وكانت الدولة الفاطمية منذ قيامها بمصر تحتفظ بنفس الصبغة المذهبية التى اتشحت بها منذ قيامها بالمغرب ، وكانت هذه الصبغة المذهبية الخاصة عنصراً من أهم عناصر الخصومة السياسية التى نشبت بيــن الدولتين العباسية والفاطمية ؛ فالفاطميون الذين يرجعون نسبهم الى فاطمة وعلى يختصون خــلافتهم بالصفة الشرعية ، ويعتــبرون الدولة العباســية وريثة الدولة الأموية غاصبة للأمامة والخلافة اللتين اغتصبهما من قبل بنو أمية من على وأبنائه ، ويتخذون من هذا المبدأ دعامة للكهم السياسى ؛ فهم حسب دعواهم أبناء فاطمة بنت الرسول ، وورثة على وعقبه الشرعيين فى إمامة المسلمين وخلافتهم

وهنا تعرض نقطة دقيقة . من هم فى الواقع أولئك الفاطميون ؟ وهل يرجع أصلهم حقاً إلى فاطمة وعلى ؟ هذه مسألة يحيط بها الخفاء والغموض ، ولم يقل فيها التاريخ كلمته الحاسمة ؛ وقد لبثت مدى عصور موضع الخلاف والجــدل فى العالم الأســلامى والرواية الأسلامية ؛ ففريق من العلماء والمؤرخين يؤيد الفاطميين فى دعواهم وفى شرعيــة إمامتهم ؛ ويرجع نســبة إمامهم ومؤسس دولتهم عبيد الله المهدى إلى الحسين بن على وفاطمة . ولكن فريقاً آخر ينكر عليهم هذه الدعوى ويرى أنهم أدعياء لا يمتون بأية صلة الى على ، وأنهم إنما استتروا بالتشيع والأمامة ليكسبوا عطف العالم الأســلامى . ويرجع هذا الفريق المنكر نسبة الفاطميين إلى عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان البونى ، وهو فقيه وافر الذكاء والمعرفة من الأهواز يرجع الى أصل مجوسى ، وداعية من أعظم الدعاة السريين الذين عرفهم التاريخ ؛ وقد كان يدعو سراً إلى مذهب فلسفى إلحادى لأنكار الأديان والنبوة صاغه فى سبع دعوات سرية ينتهى الداخل فيها إلى انكار جميع العقائد والشرائع ، ومنها استمدت دعوة القرامطة وبعثت ثورتهم الاباحية المروعة ؛ وكان يستتر بالتشيع ويدعو لأمام من آل البيت هو محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق من ولد الحسين بن على ؛ فلما توفى قام بدعوته السرية ولده أحمد ، ومن بعــد أحمد ولده الحسين فأخوه سعيد ؛ واستقر سعيد بسلمية من أعمال حمص واستمر فى نشر الدعوة وبث الدعاة حتى استفحل أمره وأمر دعوته ، وحاول الخليفة المكتفى بالله أن يقبض عليه وأن يخمد دعوته ففر الى المغرب ؛ وبشر له هناك دعاته وقاتلوا من أجله حتى ظفر بملك الأغالبة وتلقب بعبيد الله المهدى ، وادعى أنه من آل البيت وانتحل إمامتهم . ويقدم الينا فريق آخر من المنكرين عن أصل عبيد الله رواية خلاصتها أن الحســين حفيد عبد الله بن ميمون هو الذى استقر بسلمية ، وكانت له زوجة يهودية رائعة

الحسن تزوجها بعد أن مات عنها زوجها الأول وهو يهودى ولها منه ولد فائق الذكاء والظرف ، فتبناه الحسين وعلمه وأدبه ولقنه أسرار الدعوة ، وتقدم إلى أصحابه بخدمته وطاعته ، وزعم أنه هو الامام ، وهو الوصى ؛ وانتحل له نسباً فى ولد على ، فكان هو عبيد الله المهدى . وهنالك أيضاً من يقول إن عبيد الله هو ولد الحسين من زوجه اليهودية ؛ وهنالك روايات وتفاصيل أخرى لا يتسع لها المقام [1]

وهذا الجدل حول نسب الفاطميين ، والطعن فيه وفى شرعية إمامتهم ومبادئهم يشغل فراغاً كبيراً فى الكتب المذهبية ؛ ونحن ممن يميل إلى الأخذ برواية المنكرين ، ولا نجد فى تدليل المؤيدين وشروحهم ما يلقى ضياء مقنعاً ؛ وكان هذا الطعن سلاحاً فى يد الدولة العباسية تشهره للنيل من الفاطميين وتشويه سمعتهم فى العالم الاسلامى ؛ وقد اتخذ قبل بعيد صبغة سياسية رسمية ؛ ففى سنة ٤٠٢ هـ فى عهد الخليفة القادر بالله ، أصدر بلاط بغداد محضراً رسمياً موقعاً عليه من كبار الفقهاء والقضاة ، وبعض زعماء الشيعة ، يتضمن الطعن فى نسب الفاطميين خلفاء مصر ، وأنهم ليسوا من آل البيت ، بل هم ديصانية ينتسبون إلى ميمون ابن ديصان ، بل إنهم كفار زنادقة ، وفساق ملاحدة ، أباحوا الفروج ، وأحلوا الخمور ، وسبوا الأنبياء ، وادعوا الربوبية . وفى سنة ٤٤٤ هـ ، كتب ببغداد محضر آخر يتضمن نفس المطاعن ؛ وزيد فيه أن الفاطميين يرجعون إلى أصل يهودى أو مجوسى [2] . ونلاحظ أن الوثيقة الأولى صدرت من بلاط بغداد ، فى عهد الحاكم بأمر الله ، وقد كان فى تصرفاته وفى ظروف عصره ، مايصلح مادة غزيرة لهذه المطاعن

— ٢ —

كانت مصر غنماً يسيراً للدولة الفاطمية الفتية ، ولكنها كانت أسطع جوهرة فى تاجها ، وأعظم قطر فى تلك الأمبراطورية الشاسعة التى أصبحت تسيطر عليها . ولقد كان قيام هذه الدولة القوية الشامخة فى مصر مستهل عصرها الذهبى ، ومفتتح تلك العظمة وذينك البهاء والبذخ التى نثرتها من حولها وطبعت بها حياة مصر العامة عصراً مديداً ؛ وكانت مصر بخصبها ونمائها وفيض مواردها أعظم دعامة فى إقامة هذا الصرح الباذخ الفخم ؛ فالعصر الفاطمى من أسطع عصور مصر الاسلامية إن لم يكن أسطعها جميعاً ؛ غير أن هذا العصر الذهبى الوهاج يبعث إلى كثير من التأمل ، فبينا نراه وضاء واضحاً فى بعض النواحى ، إذ نراه فى البعض الآخر مظلماً مغلقاً ، وإذا هذه الخلافة القوية الساطعة يكتنفها كثير من الخفاء والغموض والريب ، وإذا تتبدى لنا فى هذا الصرح البراق ثغرات سود لا نستطيع أن نسبر غورها أو نظفر بقرارتها ؛ ويشتد هذا الخفاء والغموض بالأخص كلما حاولنا أن نستعرض من هذا العصر نواحيه الدينية والمعنوية ، فهنا تبدو من آن لآخر ظلمات يصعب استجلاؤها . على أننا سنحاول مع ذلك أن نستعرض من العصر الفاطمى فترة ربما كانت أشده خفاء وغموضاً ، وربما كانت مع ذلك أدعى الى الاهتمام والدرس ، لما تعرضه لنا من حوادث وظروف وخواص مدهشة ، ولما تسفر عنه أحياناً من الحقائق والأسرار الغريبة التى تلقى شيئاً من الضياء على روح السياسة الفاطمية الدينية والمدنية ، وعلى حقيقة وجهاتها وغاياتها

نريد بذلك عصر الحاكم بأمر الله أغرب وأغمض شخصية فى تاريخ مصر الاسلامية

قدم المعز لدين الله (تميم أبو معد) الى مصر بجيوشه وأمواله وعصبته فى السابع من رمضان سنة ٣٦٢ هـ (منتصف يونيه سنة ٩٧٣) بعد أن أنشئت العاصمة الجديدة (القاهرة) وأعدت لنزوله ، واستتب النظام ، وتوطد الملك الجديد ، وتاق المعز ملك

---

(١) راجع فى تفاصيل هذه المسألة ابن الأثير ج ٨ ، ٩ ، ١٢ وابن خلدون — المقدمة ص ١٧ — ١٩ والمقريزى (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ١٥٨ — ١٦٠ : ويؤيد هؤلاء الثلاثة نسبة الفاطميين إلى آل البيت ، ويبدى ابن خلدون بالأخص حماسة ظاهرة فى التدليل على ذلك وفى تفنيد حجج المنكرين ، ويحذو حذوه المقريزى وهو ممن ينتسبون إلى الفاطميين ؛ ويفسر ابن حجر حماسة ابن خلدون فى تأييد نسب الفاطميين بتفسير آخر هو أنه لانحرافه عن آل البيت يثبت نسب الفاطميين إليهم ليكون ذلك معرة لهم ، لما اشتهر عن الفاطميين من سوء العقيدة وكون بعضهم ينسب إلى الالحاد والزندقة (راجع رفع الأصر — مخطوط بدار الكتب — الورقة ١٦٠) وابن حجر من المنكرين لنسب الفاطميين ، ومنهم أيضاً ابن خلكان (راجع الوفيات ج ١ ص ٢٤٢)

(٢) ابن خلدون ج ٣ ص ٤٤٢ — وأبو الفدا ج ٢ ص ١٤٣ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٥

الشأم كما تلقى ملك مصر على يد قائده جعفر بن فلاح ، ودعا له بنو حمدان فى حلب ، فكانت مملكته الشاسعة تمتد من أواسط المغرب الى شمال الشأم ؛ ولكن ثورة القرامطة كانت تهدد ملكه الجديد فى مصر والشأم ، وكان القرامطة قد زحفوا على مصر بالفعل فى أوائل سنة ٣٦١ ، ونشبت بينهم وبين جيوش المعز بقيادة جوهر معارك هائلة على مقربة من الخندق (بجوار القاهرة) انتهت بهزيمتهم ، ولكنهم ارتدوا عندئذ نحو الشأم فافتتحوها من يد ابن فلاح نائب المعز ، ثم زحفوا على مصر كرة أخرى ، فلقيتهم جيوش المعز على مقربة من بلبيس ، وهزمتهم هزيمة ساحقة (أواخر سنة ٣٦٣ هـ) . وفى العام التالى خاضت الجيوش الفاطمية فى الشام معارك شديدة ضد أفتكين المتغلب على دمشق وحلفائه البيزنطيين ؛ وفى الوقت نفسه غلبت الدعوة الفاطمية على الحجاز ودعى للخليفة الفاطمى على منابرها

وتوفى المعز فى ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ (ديسمبر سنة ٩٧٥ م) ، فخلفه ولده العزيز بالله (أبو منصور نزار) ، ولبث فى الخلافة زهاء إحدى وعشرين سنة . وفى أول عهده زحف القرامطة وحليفهم أفتكين على مصر ، فلقيهم العزيز فى فلسطين وهزمهم بعد حرب شديدة وأسر أفتكين (٣٦٨ هـ) وفى أيامه استردت دمشق ، وافتتحت الجيوش الفاطمية حمص وحماه وحلب وخاضت مع البيزنطيين معارك عديدة كان النصر حليفها فيها ؛ ودعى للعزيز فى الموصل واليمن ، واتسع بذلك نطاق الدعوة الفاطمية اتساعاً عظيماً . ثم توفى العزيز فى ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ (سبتمبر سنة ٩٩٦ م) فى بلبيس حيث كان يعتزم السير بعساكره الى الشأم[1] ؛ فخلفه يوم وفاته ولده وولى عهده أبو على منصور ، ولقب بالحاكم بأمر الله ، وكان العزيز قد استدعاه اليه فى مرض موته ؛ وفى اليوم التالى سار الحاكم الى القاهرة ومعه جثة أبيه ، فدخلها فى موكب فخم مؤس معاً

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان
المحامى

النقل ممنوع

(١) هذه هى الرواية الراجحة وبها يقول ابن الأثير (ج ٩ ص ٤٠) وابن خلكان (الوفيات ج ٢ ص ٢٠١) . وهناك رواية أخرى هى أن العزيز توفى بالقاهرة قبل خروجه الى الشأم (راجع النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٢١)

كيف نبعث الأدب
وكيف نتروّاه

للأستاذ عبد العزيز البشرى

تتمـــة

ابن ادبنا الصريح ؟

لقد تعرف أن الأدبَ الحقّ لكلّ أمةٍ هو الذى يشاكل حضارتها ، ويكافئ ثقافتها ، ويواتيها فى جميع أسبابها ، ويترجم فى صدقٍ ويسرٍ عن عواطفها ، وينفض ما يعتلج فى الصدور من ألوان الشعور والأحساس . ولقد تعرف أن الأمم كما تختلف فى ألوانها وفى ألسنتها وفى أخلاقها وعاداتها وغير أولئك ، فانها تختلف كذلك فى شعورها وفى أذواقها ومنازع عواطفها . ومهما تختلف فى أفراد الأمة الواحدة هذه العواطف بالقوة والضعف ، والرقة والجفاء ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف ، فانها ترجع إلى أصل واحد ، وتندرج تحت جنس واحد ، على تعبير أصحاب المنطق ، وذلك لأنها أثر من آثار الأرث ، والبيئة ، والعادة ، والتاريخ ، وما يتردّد عليه النظر من صور الطبيعة ، وغير ذلك . كما أن لنوع الثقافة ومبلغ حظ الأمة منها أثره البعيد أو القريب فى هذا الباب

ومهما يكن من شىء فان لون العواطف الشائع فى كل أمة ليس بالشىء الذى يستعار استعارةً ، ولا بالذى تتناقله الأمم كما تتناقل العلوم وفنون الصناعات مثلاً . وكيف له بهذا وقد رأيت أن أبلغ عناصره مما لا يدرك بالكسب ولا بالاختيار ، إن هو إلاّ حكم الطبيعة وما من حكم الطبيعة مناص !

وأحسب أننا ، بعد التسليم بهذا ، فى غير حاجة إلى أن نبعث الأدلة على أن ما يترجم عن عواطف قوم ويصور من حسهم الباطن قد لا يؤدى هذا لغيرهم ، وأن ما يستقيم من البيان لأذواق خلق من الناس لقد ينشز على أذواق معشرٍ آخرين . على أنه قد تشترك العاطفة والذوق كلاهما فى معنى من المعانى ، وحينئذ يصدق البيان

وعلى هذا فانه مهما نسرف فى مطالعة أدب الغرب والتروى منه ، ومهما نجهد فى محاكاته وتقليده ، فانه لن يكونّن لنا أدباً فى يوم من الأيام ، اللهم إلا أن تنقلب أوضاع الطبيعة ، فان الأمم لا تطبع على غرار الآداب ، بل إن الآداب لهى التى تطبع على غرار الأمم !

لقد نكون فى حاجة ولقد تكون هذه الحاجة شديدة جداً إلى مطالعة آداب الغرب وإطالة النظر فيها ، واستظهار الكثير من روائعها ، ونقل مايتهيأ نقله إلينا منها فى لسان العرب ، ولكن ليس معنى هذا أن نتخذها آداباً لنا . فذلك ، كما علمت ، عبث لا يغنى ولا يفيد

***

والآن نلتمس أدبنا باعتبارنا عرباً أو مستعربين نعيش فى مصر ، مأخوذين بثقافتها القائمة ، موصولين بتاريخها القديم . إننا نلتمس هذا الأدب الذى يوحى به إلينا تاريخنا العربىّ من ناحية ، وتاريخنا المصرىّ من الناحية الأخرى . هذا الأدب الذى تلهمنا إياه أخلاقنا وعاداتنا وثقافتنا ، ويسوّيه لنفوسنا العيشُ فى وادى النيل . إننا نلتمس هذا الأدبَ الذى يَفيض بما تجيش به عواطفنا ، ويصدق فى الترجمة عما يَعتلج فى نفوسنا ، ويصوّر دخائل حسّنا أكمل تصوير ، ويعبرّ عنها أدق تعبير . وإن شئنا الكلمة الجامعة قلنا إننا نلتمس الأدبَ القوميّ فلا نُصيب أثره إلا قليلاً فيما يخرج لنا من آثار الأدباء والمتأدبين !

اللهم إن فينا أدباء جروا من العربية على عرق ، وأحرزوا صدراً من بديع صيغها ، وتفتحت نفوسهم لمنازع بلاغاتها ، واستظهروا الكثير من روائعها فيما نظم متقدّمو شعرائها وما أرسل المجلّون من كتابها . على أنّ أكثر هؤلاء ، والشعراء منهم على وجه خاصّ ، إذا اجتمع أحدهم لحديث العاطفة لم ينفض ما يُحس هو ومايشعر ، وإنما تراه يترجم عما كان يجده السلف الأقدمون من مئات السنين ، لأنه جعل كل همّه الى المحاكاة والتقليد ليخرُج شعرُه عربياً لاشكّ فيه ، وهؤلاء يتناقصُ عديدهم على الزمان حتى أشفق فنّهم على الزوال

وهناك شبابٌ لم يَبلُغوا حظاً مذكوراً من العربية ، ولعل من بلغ منهم حظاً منها لم يُمنَ بها ولم يَكترث لها ، وهؤلاء أقبلوا على أدب الغرب فجعلوا يحاكونه ويترسمون آثاره ، فيَستحدثون أخيلةً لم تتراءَ لأحلامهم ، ويُسوّون صوراً لم تتمثّل لخواطرهم ، ويُريقون عواطفَ لم تترقرق فى نفوسهم ، ويفصدون أحاسيس لم تجش قطُّ فى صدورهم . وتراهم يستكرهون هذه الأمشاج من المعانى على نظام ليس فيه من العربية إلا مفردات الألفاظ ، يُشدُّ بعضها الى بعض بمثل قيود الحديد برغم تنافُرها وتناكرها بحيث لو أُطلِقت من إسارها لتطايرت الى الشرق والغرب ما يُلوى شيءٌ منها على شيء ! . فيخرج من هذا ومن هذا كلامٌ لا يستوى للطبع ، ولا يستريح اليه الذوق ، ولا يخف للتعلّق به الخيال ! وكيف له بشيء من هذا ولم ينتضح به طبع ، ولا رُهف له حس ، ولا تحركت به عاطفة ، ولا انبعث إليه من نفسه خيال ! فهو أدب مصنوع مكذوب على كل حال

بل إن هناك شباباً لم يحذقوا شيئاً من لغات الغرب ، ولم يَظهروا فيها على شيء من آداب القوم ، ولكن لقد تعاظمتهم صَنعة أولئك فراحوا هم الآخرون يُشاكلونها ويحذُون جاهدين حذوَها ليُضافوا هم كذلك الى جمهرة (المجدّدين) ، وما التجديد فى شِرعة أكثر هؤلاء إلا الاتيان بالغريب الشامس فى نظمه وفى صُوره وأخيلته ومعانيه ! وإذا كان هذا اللّون من البيان مما يصح أن يَنتسب إلى أيّ أدب من الآداب ، فانه مما لا يَصلح لنا على أيّ حال !

وإن مما يضاعف الاساءةَ ويَزيد فى الألم أن يُقبل الناشئون من طلبة المدارس على هذا اللون فيتخذوا منه نماذج يحتذونها إذا تمّرسوا للبيان ، ولن يُجشمهم التجويدُ والبراعةُ فيه جليلاً من جهد ولا مشقة ، لأن قسْر أيّ معنى على أيّ لفظ ، وتسوية الخيال فى أيّة صُورة ، ليس مما يُعيى جهدَ المرء ولا مما يعتريه بالمشاقّ . ومن هنا يشيع أرخص الآداب ، أو أنه ينذر بالشيوع فى هذه البلاد ! ولو قد تُرك فى مذهبه هذا لطغَى أشدّ الطغيان ما تغنى فى صدّه جهودُ الأعلام من الأدباء . . وحينئذ يكتب على مصر أن تعيش من غير أدب أو تعيش بهذا الأدب النكر الشائه الذى لا نَسبَ له مدة طويلة من الزمان !

الأدب القومى :

إذن لا مفرّ لنا من أن نلتمسَ أدبنا القوميّ . ولا يكون هذا الأدبُ إلا عربيّ الشكل والصورة ، مصريّ الجوهر والموضوع . وإذن فقد حق علينا أن نبعث الأدبَ العربى

القديم، وننثل دواوينه، ونستظهر روائعه، ونتروى منها بالقدر الذي يفسح فى ملكاتنا، ويقوّم ألسنتنا، ويطبعنا على صحيح البيان. فاذا أرسلنا الأقلام فى موضوع يتصل بالآداب، بوجه خاص. أطلقنا القول فى صيغة عربية لا شك فيها، على ألا نطلب بها إلا الترجمة عما يختلج فى نفوسنا، ويتصل باحساسنا، ونصور بها ما نجد مما يلهمه كلُّ ما يحيط بنا، وما يعترينا فى مختلف أسبابنا من فكر ومن شعور ومن خيال

ولقد قدمت لك أننا قد نكون فى حاجة شديدة جداً إلى مطالعة آداب الغرب وإطالة النظر فيها، واستظهار الكثير من روائعها. ونقل ما يتهيأ نقله إلينا منها فى لسان العرب. وهذا أمرٌ لا شكَّ فيه ولا غَناء لنا عنه، فان ذلك مما يهذب من ثقافتنا، ويَفسح فى ملكاتنا، ويُرهف من حسنا، ويهدينا الى كثير من الأغراض التى تشتمها آداب الغرب فى هذا العصر. والواقع أننا تهدَّينا من آداب الغرب إلى فنون لم يكن لنا بها عهدٌ من قَبل، أو أنها مما عالجه سلفنا ولكن لم يكن حظُّهم منه جليلاً. ومن أظهر هذه الفنون القصص بالمعنى القائم، ومذاهب النقد الحديث!

على أن شيئاً من ذلك الأدب الأجنبيّ لا يُجدى علينا، ولا يؤدّى الغرض المقسومَ بمطالعته والاصابة منه إلا إذا هذّبناه وسوّينا من خَلْقه ولوّنا من صورته حتى يتّسق لطباعنا ويوائمَ مألوف عاداتنا، ويستقيم لأذواقنا. كما ينبغى أن نجهد الجهدَ كله فى تجليته فى نظام من البلاغة العربية محكم التنضيد، فلا نحسّ فيه شيئاً من نبوّ ولا نشوز. وبهذا نزيد فى ثروة الأدب العربىّ، ونرفع من شأنه درجات على درجات

وليس هذا الذى نرجوه لأدبنا بدعا فى شريعة الآداب سواء فى جديد الزمن أو فى قديمه. فقد كان الأدباء وما برحوا إلى اليوم يعتمدون الفكرةَ البديعة، والمعنى السامى، والخيال الطريف المنسجم، يصيبونه فى لُغَى أجنبية، فلا يزالون به يطامنون منه لأذواقهم، ويروضونه لأساليب لغاتهم، حتى يجلوه فيها من غير عسر ولا استكراه. وإن تصرّف المتقدمين من أقطاب البيان العربىّ فيما نقلوا من ألوان المعانى فى اللغات الأجنبية لَمِن أصدق الدّليل على صحة هذا الكلام. وهل رأيت إلى ابن المقفّع لو لم يحدثك أنه ترجم كتابه (كليلة ودمنة) عن إحدى اللغات الهندية. أفكان يتسرّحُ بك الشك فى أنه عربىّ الأصل والمنجم، عربى الحلية والنسب؟ اللهم إن تسوية المترجم لما ينقل إلى لغته، وطبعه على ما يواتى أحلامَ معشره، ويسوغ فى أذواقهم، وينزع منازع بلاغتهم، ليس مما يقدح فى كفايته، بل إنه لما يرفع من قدره ويُغلى من تصرّفه. وكيف لا وهذا القرآنُ الحكيم لقد حدّثنا عن عشرات من الأمم، كانوا ينطقون فى الأعجمية لغات متفرقة، ونقل إلينا كثيراً من أحاديثهم ومقاولاتهم ومحاوراتهم ومجادلاتهم، فما أدّاها إلا فى أعلى العربية الخالصة، بل فى العربية البالغة حدّ الاعجاز، وهل بعد بلاغة القرآن بلاغة، وهل وراء بيان الكتاب العزيز بيان؟!

وصفْوة القول أنه لا يعيبُ اللغةَ أو يغضُّ من شأنها أن تصيب من بلاغات غيرها على أن تسيغه وتهضمه وتسويه حتى ينتظمَ فى سلكها، ويتّصل بخَلقها، ويوسّع فى مادّتها، ويُضاعف ثروتها، لا أن يقْسرَ عليها قسراً ويُستكرهَ لها استكراهاً، فينكر صورتها ويشوّه من خَلقها على ما نرى من صنع كثير يُعربدون فى الأدب العربىّ باسم (التجديد) فى هذه السنين!

كيف نعلم الأدب :

ولا شك فى أن الينبوعَ الأولَ الذى يرده النشء ليَنهلوا من فنون العربية ويتروّوا آدابها ويَستشيروا بلاغتها، ويبعثوا لترسّمها إذا هم أقبلوا على البيان، هو معاهد التعليم على وجه علم؛ فاذا هى جدّت فى سهمها وأخذت مَنْ بين يديها من التلاميذ بما ينبغى أن يُؤخذوا به من أساليب التعليم والتمرين، كان لنا فى هذا الباب كلُّ ما نريد

وإذا كان الادب كسائر الفنون إنما يَبرَع المرءُ فيه بالاستعداد الفطرى مع التكلّف به وشدّة الاقبال عليه وطول التمرين فيه بأ كثر مما يحرز بالتعليم والتّلقين، فان مما لا يعتريه الريبُ أن للأستاذ، وخاصّةً فى ابتداء المعهد بالطلب، أثراً بعيداً فى تعليم أصول الفن وبيان حدوده، وإعلام طريقه بين يدى الطالب، وتهذيبه بطول التعهد، وتوسيع مَلَكاته بألوان الملاحظة، وإسلاس الاجادة له بفنون التدريب والتمرين. ولعمرى لو قد أخذ الأساتيذ تلاميذهم بهذا الأسلوب فى تعليم الأدب العربى لأحبوه وكلِفوا به وانبعثوا من تلقاء أنفسهم لمراجعته فى أوقات فراغهم، وإمتاع

النفس بتسريح النظر فى بدائعه . وكذلك تصبح مطالعة الأدب رياضة يطلب بها الترفيه والاستجمام إذا لحق الكد ، وأجهدت المطاولة فى طلب العلم . وسرعان ما تستقيم الطباع ، وتدرك الملكات ، ويجرى صادق البيان فى الأعراق مجرى الدماء

أما إذا حصب التلاميذ بالقواعد جافة لا يترقرق فيها ماء البيان صافياً ، وقنع الأساتذة بأن يلقوا اليهم قطعاً من الشعر أو النثر ليحفظوها دون أن يوصل بين نفوسهم وبين ما تحوى من ناصع البلاغة ، فقد استثقلوا الدرس وكرهوه ورموا به ، وتجرعوه تجرعاً إشفاقاً من العقوبة أو من التخلف إذا كان الامتحان ! وإنى لأكره أن أقول إن إقبال كثرة التلاميذ على هذا الأدب الرخيص الذى يخرج فى العامية حيناً ، وفى تلك العربية المتكسرة الشائهة أحياناً ، وتهافتهم عليه ، وافتتانهم به ، وأخذ الأقلام بمحاكاته وترسمه ، إنما هو أثر من آثار ذلك البرم والاستثقال لدروس العربية وآدابها فى معاهدنا المصرية !

والآن فالرأى فى قيام أدبنا القومى وفى لغة الكتاب العزيز إلى أساتيذ المدارس ، وإلى وزارة المعارف ، فلننظر ماهم فاعلون !

عثرة ورجاء :

بقيت هنالك مسألة لا يجمل بنا أن نختم هذا المقال دون أن نعرض لها بشىء من البيان : يقولون إن اللغة العربية فقيرة ، أو إنها أصبحت فقيرة بحيث لا تستطيع أن تؤدى بعض مطالب الحياة فى هذا العصر إلا فى شدة عسر وحرج ، ولا تستطيع أن تؤدى بعضها أبداً . وهذا كلام ، على أنه لا يخلو من الحق ، فانه لا يخلو من الاسراف الى حد بعيد . إذ الواقع أن اللغة العربية غنية سخية بالكثير مما يواتى مطالب العاطفة ، ويصور نوازع الشعور أحسن تصوير . فلقد بلغ المتقدمون من شعراء العربية فى هذا الباب ما لا أحسب أن قد برعهم فيه كثير من أصحاب البيان فى اللغات الأخرى . ولو قد نفض متكلفو الأدب دواوين أولئك الشعراء وفروا ما أجنت من قصائد ومقطوعات لخرج لهم من ذلك ما يلقنهم جليلاً من تصوير مختلف العواطف والتعبير عن خفيات الحس والشعور . وهذا ، لو علمت ، أجل مطالب الأدب فى جميع اللغات . وحبذا لو أكثر الأساتيذ من عرض هذه الأشعار على تلاميذهم ، وتقدموا اليهم الفينة بعد الفينة بالحديث فى الموضوعات الانشائية ، عن الحس والعاطفة فى مختلف الأسباب ، واستدركوا عليهم ما عسى أن يكون قد أخطأهم فى ذلك من ناصح البيان

على أن هناك عقبة أخرى تحتاج إلى جهد فى التذليل ، وهى أنه فى ركود لغة العرب بانقباض حضارتهم ، عقد ما لا يكاد يحصره العدد من الاصطلاحات العلمية والفنية ، واستحدثت أشياء كثيرة جداً فى جميع وسائل الحياة ، سواء منها الضروريات والكماليات . ولا شك فى أن إصابة هذه الأشياء فى لغاتها إفساد للعربية واستهلاك لها . كما أنه لا معنى للالتفات عنها إلا الاعراض عن هذه الحضارة العريضة ، بل الاغراض عن أكثر ما نجده وما نعالجه فى هذه الحياة . وهذه العقبة تقوم الآن على تذليلها جهود أفاضل الأدباء من جهة ، والمجمع الملكى للغة العربية من جهة أخرى ، بالغوص عما يدل على ذلك فى محفو العربية سواء بأصل الوضع أو بالطرق الفنية الأخرى

ولقد يكون من المفيد فى هذا المقام أن ننبه حضرات رجال هذا المجمع أن الاكتفاء باثبات ما يتسق لهم من المصطلحات والألفاظ فى معجم جامع أو نشرها فى كراسات دورية ليس مما يجدى كثيراً فى اصابة الغرض المقسوم ، فقد ثبت ، بحكم التجربة ، أن أبلغ الوسائل فى شيوع الألفاظ والصيغ المستحدثة أو الميمونة من جائم اللغة ، وكثرة دورانها على الألسن والأقلام ، هى استعمال كبار الشعراء والكتاب لها ، وترديدها فيما تجليه الصحف السائرة لهم من الآثار ، فحبذا لو سعى إلى هذا أولياء اللغة ، وخاصة فيما يتصل ، مما يستظهرون ، بالفنون والآداب

نسأل الله تعالى أن يهدى الجميع سواء السبيل

عبد العزيز البشرى

موسى بن ميمون

وعقدة الاتصال بين الفلسفة الاسلامية والفلسفة الغربية

بمناسبة ذكراه الثمنية الثامنة

للدكتور ابراهيم مدكور

موسى بن ميمون ، هو فيلسوف الأندلس ومصر فى القرن الثانى عشر ، وأحد كبار حكماء بنى سرائيل الذين خلدوا أسماءهم بما خلفوا من كتب وآراء . ولد بقرطبة فى الثلاثين من شهر مارس سنة ١١٣٥ ؛ وتوفى بالقاهرة سنة ١٢٠٤ . تنقل بين مراكش وفلسطين ؛ إلا أنه قضى عصر جزءاً عظيما من حياته ، فعاش بها سبعاً وثلاثين سنة يدرس الفلسفة والطب ، ويشغل كرسى الحاخام . فكان بذلك وليد الحياة العقلية الاسلامية ، وتلميذ المدرسة العربية التى أثرت فيه تأثيراً عظيما . وليس ثمت من مثل أوضح لهذا التأثير من كتابه « دلالة الحائرين » ، تلك المرآة الناصعة والصادقة فى أغلب الأحيان ، التى تعكس علينا فى تفصيل ودقة تاريخ شطر كبير من الأفكار الدينية والفلسفية الاسلامية

لا أحاول فى هذه الكلمة القصيرة أن أبين الصلة بين فلسفة ابن ميمون وفلسفة الاسلام ، أو إن شئت بين هــذه والفلسفة اليهودية عامة فى القرون الوسطى ، والتى يمثلها رجلنا أصدق تمثيل ؛ فقد تصديت لهــذا الموضوع فى بحث حديث العهد ، وأثبت ببراهين لا تدع مجالاً للشك أن ما يصح أن نسميه فلسفة يهودية انما هو امتداد طبيعى للدراسات الاسلامية[1] . ولقد كتب فى هذا من قبل مؤرخون متعددون على رأسهم رينان[2] . وإنما أريد فقط أن أوضح نقطة لم يوفها الباحثون حقها ، ولم يتنبهوا الى أهميتها التاريخية : ألا وهى الدور الذى لعبــه ابن ميمون فى نشر الفلسفة والأفكار الاسلامية فى العالم الغربى . لم يكتف مفكرو اليهود باعتناق آراء فلاسفة الاسلام ونظرياتهم ، بل عملوا على نقلها الى المدارس المسيحية ؛ فوصلوا الشرق بالغرب ، وربطوا حلقات التاريخ بعضها ببعض . وفضلهم فى هذا الصدد أوضح من أن ينوه عنه ؛ وحسبنا دليلاً ما صنعوا ببعض الكتب الفلسفية التى فقد أصلها العربى ، ولم يبق لنا منها إلا الترجمات العبرية واللاتينية[1] . فابن رشد مثلا تتعذر علينا دراسته إن وقفنا عند مؤلفاته العربية التى وصلت الينا ؛ ويكاد يكون أعرف الى قراء العبرية واللاتينية منــــه الى قراء العربية . وعلى الجملة فاليهود الذين تتلمذوا على العالم العربى ، وانتشروا فى كبار العواصم الأوربية يعدّون بحق عقــدة الاتصال بين الفلسفة الاسلامية والفلسفة المسيحية

لم يكن ابن ميمون بالناقل أو المترجم ؛ بيد أن كتابه « دلالة الحائرين » كان من أول ما ترجم الى اللاتينية فى الدائرة الفلسفية والعلوم الدينيــة . ليس فى مقدورنا أن نحدد بالدقة تاريخ ولا صاحب أول ترجمة لاتينية لهذا الكتاب ؛ وكل ما يمكن تعيينه أن هــذه الترجمة سابقة لمنتصف القرن الثالث عشر الميلادى : ذلك لأن Albert le Grand و St Thomas d' Aquin يرددان كثيراً اسم موسى بن ميمون[2] ؛ كما أن Guillaume d' Alexandre, و Auvergne de Halès يشيران الى « دلالة الحائرين » كمصدر أخذا عنه واعتمدا عليه[3] . لم يكد هذا الكتاب يترجم الى اللاتينية حتى أكب على دراسته كبار فلاسفة القرن الثالث عشر الذين ذكرنا بعض أسمائهم . فأفادوا منــه كثيراً ؛ وكان عمدتهم فى تعرف النظريات الاسلامية العامة . ونستطيع أن نقول إن « دلالة الحائرين » أول وأشمل مؤلف درس فيه اللاتينيون الفلسفة العربية ، وأنه قد عمل على نشر هذه الفلسفة بدرجة لا يعادله فيها كتاب آخر . نحن لا ننكر أن بعض مؤلفات الفارابى وابن سينا وحظاً وافراً من مؤلفات ابن رشد قد ترجم إلى اللاتينيــة ، غير أن « دلالة الحائرين » كان أسبق من هذه الترجمات وأعظم شيوعاً . فأما الفارابى فما كان يعرفه الا آحاد من فلاســفة الغرب ، وإذا استثنينا Albert le Grand ، لا نكاد نجد مؤلــفاً قد أشار الى اسمه

(١) Madkour, La place d' al Fârâbî, p p. 65 - 66, 116 - 118, 169 - 170.

(٢) Renan, Averroès et l' averroïsme, p. 178.

(١) نستطيع أن نذكر من بين هذه الكتب الجزء الأخير من رسالة الفارابى المسماة : « مقالة فى معانى العقل » ؛ وقد بحثنا طويلا عن الأصل العربى لهذا الجزء فلم نعثر عليه ، Voir Madkour, op. cit., pp. 148-149.

(٢) Gilson, Archives d' hist. doct. et lit. du moyen âge, Paris 1925, p. 13 en bas.

(٣) Levy, Maïmonide, p. 263.

فى كتاب من كتبه[١] . وأما ابن سينا فبرغم نفوذه العظيم لدى طائفة من علماء القرن الثالث عشر لم يكن بالقرب اليهم قرب ابن ميمون ؛ ولعل للفوارق الدينية أثراً فى هذه الظاهرة . وأما ابن رشد فقد كانت خرافة إلحاده التى سادت أوربا فى القرون الوسطى ، والتى درسها (رينان) دراسة مفصلة سبباً فى أن ينظر إليه بنظرة خاصة[٢] . على العكس من هؤلاء جميعاً قد استطاع ابن ميمون بفضل كتابه « دلالة الحائرين » أن يمكن من نفوذ الفلسفة الاسلامية فى المدارس الغربية عن طريق غير مباشر لا يشك فيه ولا يخشى خطره

ويجب أن نضيف إلى ما تقدم أن نقد هذا الحبر لبعض نظريات المتكلمين قد حببه ، فيما يظهر ، إلى الفلاسفة المسيحيين . فهو ينقض نظرية الجوهر الفرد (l'atomisme) ، ونظرية تعريف الله (La définition de Dieu) ، ونظرية الصفات الآلهية (les attributs divins) بشكل يقربه من أرسطو بقدر ما يبعده عن علماء التوحيد المسلمين[٣] . وقد كان لهذا النقض أثر واضح على كبار فلاسفة القرن الثالث عشر . ونظرة الى مناقشة St. Thomas لنظرية الجوهر الفرد تحملنا على أن نجزم بأنه اعتمد اعتماداً كبيراً على كتاب ابن ميمون ؛ على أنه هو نفسه يعترف بذلك فى صراحة تامة[٤] ، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن هذا الكتاب هو المصدر الوحيد الذى عرف منه الفلاسفة اللاتينيون نظرية الجوهر الفرد الأسلامية ؛ فانا لا نجد أى إشارة هامة متعلقة بهذه النظرية فيما ترجم الى اللاتينية من كتب عربية أخرى . « فدلالة الحائرين » قد اختص إذاً بنقل بعض المسائل الأسلامية إلى المدارس الغربية فى القرن الثالث عشر الميلادى

لم يقف أثر هذا الكتاب فى نشر الأفكار الأسلامية عند القرون الوسطى ، بل جاوزها إلى العصور الحديثة . وذلك أنا نجد لدى واحد كاسبينوزا أو كلايبنتزا آراء كثيرة الشبه بآراء فلاسفة الأسلام . فنظرية النبوة (le prophétisme) عند الأول تشبه شبهاً عظيماً النظرية التى أخذ بها الفارابى ؛ ومشكلة العناية (l'optimisme) عند الثانى لا تختلف كثيراً عما قال به ابن سينا من قبل[١] . وربما يبدو غريباً أن نحاول إثبات علاقة بين مفكرى الأسلام وهؤلاء الفلاسفة المحدثين ؛ خصوصاً وقد جرت عادة مؤرخى الفلسفة الأسلامية أن يقفوا بها عند القرون الوسطى ؛ وما فكر واحد منهم ، فيما أعلم ، أن يدرس الصلة بين هذه الفلسفة وفلسفة العصور الحديثة . غير أنا نرى أن هذه الصلة جديرة بالبحث والدرس ومعتمدة على أسس تعززها ، فقد عرف اسبينوزا كتاب « دلالة الحائرين » وعنى به عناية خاصة ، كما عرفه لايبنتز ، وأثنى عليه ثناء كبيراً[٢] . فعلى ضوء هذا الكتاب نستطيع أن نحدد إلى أى مدى تأثر رجال العصور الحديثة بالأفكار الأسلامية . يخيل الينا أنا أول من تنبه إلى هذه العلاقات التاريخية ؛ وقد حققناها فيما يتعلق بنظرية النبوة[٣] . ونأمل أن يمن الباحثون فى هذه الطريق التى سلكناها كى يلقوا جزءاً من الضوء على طائفة كبيرة من النقط الغامضة ، ويخدموا فى آن واحد القرون الوسطى والتاريخ الحديث . نحن لا نقول بأن الفلسفة الأسلامية قد أثرت تأثيراً مباشراً فى الفلسفة الحديثة ، ولكننا نلاحظ فقط أن هناك مواطن شبه بين الفلسفتين . فلنعمل إذاً على توضيحها وبيدنا كتاب « دلالة الحائرين » الذى ألف بلغة الأسلام وفوق أرضه وتحت سمائه ؛ ثم نقل إلى أوربا فكان موضع تقدير المفكرين منذ القرن الثالث عشر الميلادى حتى اليوم

ابراهيم مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(١) Madkour, op. cit., p. 2.

(٢) Renan, op. cit.

(٣) Maïmonide, Guide, édit. Munk, I, 190, 351 et suiv.
نأسف لأنا لم نجد أمامنا أثناء كتابة هذه الكلمة الطبعة العربية لنحيل عليها

(٤) St. Thomas Cont Gentes, L. III ch. Lxv. - ch Gilson, Archives, I, p. 20.

(١) Madkour, op. cit., p p - 206 - 209.

(٢) Ebid - Spinoza, Ethique, II. 7; ch. Bréhier, Hist de la philos. , t. II, p. 159.

(٣) نعد الآن بحثاً خاصاً بنظرية العناية ، ونرجو أن نوفق لنشره فى فرصة قريبة

حول الأوزاعى

للأستـــاذ أمين الخولى
المدرس بكلية الآداب وكلية أصول الدين

الأوزاعى الكاتب . تفسير النصوص التاريخية والاستنباط منها

اتفق وأنا قريب عهد بكتاب « أحسن المساعى ، فى مناقب الامام أبى عمرو الأوزاعى » الذى نشره ونقحه وعلق عليه ، وقدم له ، الأستاذ الكبير الأمير شكيب أرسلان ؛ أن وصلنى العدد ٨٩ من الرسالة الصادر فى ١٨ مارس سنة ١٩٣٥ ، وفيه مقال عن الأوزاعى لحضرة الأديب عبد القادر على الجاعونى ؛ فلما قرأته تبدت لى نواح من القول عن الامام الأوزاعى ؛ وعن مقال الرسالة فيه ، وأحببت أن أحدث بها قراء الرسالة ؛ لكنما أحب قبل الخوض فى شئ من ذلك أن أرسل وراء البحار ، على صفحات الرسالة الغراء ، تحية وإجلالاً للأمير العربى الكبير الأمير شكيب أرسلان لصدق غيرته ، وجليل خدمته للعروبة وأهلها علمياً وأدبياً واجتماعياً : تحية تقدير لحقه على الشرق والعرب ؛ وإجلال لذكريات كريمة للأديب العالم الأمير ، على تمادى الأيام ، ونأى الديار

١ — الأوزاعى الكاتب

اشتهر عند القدماء والمحدثين ، أن الأوزاعى إمام فقيه مجتهد ، صاحب مذهب ، أو ما يتصل بذلك وينتهى اليه ، فحسب ؛ ولم يعرفه الأدباء ومؤرخو الآداب ، من أصحاب الأقلام والناثرين المقتدى بهم فى القرن الثانى الهجرى ، من جيل عبد الحميد الكاتب أو يكاد ؛ لكن هنالك ناحية أدبية ، فى الأوزاعى ، له فيها تفوق خطير ، وآثار ذائعة ، ومشاركة فعلية فى حياة النثر العربى الأولى ، وتاريخ الرسائل ؛ إذ يذكر مترجموه أنه كان بارعاً فى الكتابة والترسل ؛[١] وأنه كانت صنعته الكتابة والترسل فرسائله تؤثر[٢]

وينقلون أنه كان من ذلك موضع الاعجاب والاكبار ، إذ يروون أن كتبه كانت ترد على المنصور فينظر فيها ، ويتأملها ، ويتعجب من فصاحتها وحلاوة عبارتها[١] ؛ بل كان فى موضع الاحتذاء والتقليد ، بل كان يقتبس رءوس الكتاب من قوله ، ويأخذون عنه ، ويتهيبون الاجابة عن رسائله ؛ إذ يقول المنصور يوماً لأحظى كتابه عنده ، وهو سليمان بن مخلد : ينبغى أن تجيب الأوزاعى عن كتبه ، فيقول : والله يا أمير المؤمنين لا يقدر أحد من أهل الأرض على ذلك ، وقال : لا على مثل كلامه ولا على شئ منه ؛ وإنا لنستعين بكلامه نكاتب به إلى الآفاق ، إلى من لا يعرف أنه كلام الأوزاعى[٢] . لكن فقه الشيخ طغى على أدبه ، وأخمل ذكره فيه ؛ حتى يقول الذهبى فى طبقات الحفاظ بعد أن روى عن أبى زرعة الدمشقى أن الأوزاعى كانت صنعته الكتابة والترسل فرسائله تؤثر : قلت : هذا نافلة سوى الفقه[٣] ؛ وهكذا غلب الفقه الأدب على الرجل ، كما غلبه على الشافعى من بعده ؛ وكما لا تزال تهيئ تلك الغلبة ظروف الحياة ، فتمضى بأدباء متفوقين إلى غير حرفة الأدب . لكنا لا ننصف حين نؤرخ الأدب فنتابع القدماء على اعتبار أدب الأوزاعى نافلة ؛ ولا ننصف إذا أعطينا هذا العهد المبكر بنثره لعبد الحميد وابن المقفع وحدهما ؛ ولا نتحرى درس الأوزاعى الأديب الناثر الممتاز إذ ذاك ، ولا نعنى بجمع آثاره فى هذا ، ولاسيما بعد ما نسمع قول المؤرخين أنهم عرفوا له كلاماً ومواعظ ورسائل كثيرة[٣] . فلعل الأدباء يعنون بجمع هذه الآثار وتتبعها ؛ ولعل المؤرخين يعنون بدراسة أثر الرجل ومنزلته بين الأدباء الناثرين فى هذا العصر . وفى سبيل هذا التعاون أشير إلى مواضع ذلك فى الكتاب المنشور عنه ؛ ففى الصفحات — ٨٤ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، كتب للأوزاعى . وفى — ٨٧ ، ١٢٤ ، ١٣٧ مواعظ له ؛ وفى — ١٣٨ وما بعدها كلمات له وحكم ، ولعل الزمن يسعفنى على المشاركة فى شئ من ذلك الدرس

٢ — تفسير النصوص التاريخية والاستنباط منها

تاريخنا الفنى والعلمى والاجتماعى لم يكتب بعد ، إذ اتجهت عناية القدماء إلى التاريخ السياسى واستيفائه ، فلم يتركوا إلا أصولاً متفرقة عن التاريخ غير السياسى ، وإن النهضة لتتقاضانا هذا الحق ، سداً لذلك النقص البادى ، ونحن فى هذا العصر نحاوله فى النواحى المختلفة ، وننتفع بما كتبه المستشرقون فيه ،

(١) أحسن المساعى ص ٣٥ (٢) أحسن المساعى ص ٥٩

(١) أحسن المساعى أيضاً ص٧٢ (٢) مقدمة أحسن المساعى ص٣٩
(٣) أحسن المساعى ص ١٣٩

ولـكن المادة الحقيقية إنما هي تلك المتفرقات القديمة التي كتبها أهل ذلك الشأن ، عن قرب ومباشرة ، وبادراك صحيح لروح ما يؤرخون وحقيقته . وفي الرجوع إلى هذه المتفرقات تحتاج إلى تفسير النصوص التاريخية بعد فهمها على وجهها فهماً صحيحا لنستنبط منها أحكامنا على العصور والرجال والأعمال ؛ والمتصدون لهذه الدراسة التاريخية الفنية أو العلمية أو الاجتماعية ، يجرون من ذلك على أسلوب أشعر أنه لا يزال يحتاج الى غير قليل من الدقة ؛ وأن أحكامهم معه لا تسلم من الدخل والوهن ؛ وليس هذا موضع الأفاضة والبيان المسهب في ذلك ، فانه مما يستحق القول المفرد في غير هذه الفرصة ؛ وإنما أحببت في هذا المقام أن أشير إلى ما يقع كثيراً في تفسير هـذه النصوص ، من عدم الرجوع إلى مواضعات القدماء أنفسهم في الشؤون الخلقية والعلمية والعملية مما تشرحه كتبهم ؛ والاعتماد في الفهم على ظواهر العبارات ، أو القياس على مواضعاتنا وعوائدنا دون تقدير لـما هناك من اختلاف قد يكون كبيراً ، وكذلك عدم التنبه إلى نواميس الحياة النفسية الانسانية التي يجب توفر الخبرة بها قبل التصدي لتفسير أعمال الأشخاص وأقوالهم أو الأقوال عنهم ، ثم وجوب رعاية السنن الاجتماعية وتأثيرها وتأثرها قبل الحكم على الحوادث أو الرجال وتعليل الأعمال وبيان آثارها ؛ فكل أولئك وكثير غيره مما يجب أن يقوم عليه فهم النص التاريخي ، وتفسيره بله الاستنباط منه ؛ وليست تلك المهمة من الهوان بما يتراءى لبعض محاولي تلك الدراسة ، وأستميح الأديب الجاعوني عذراً في أن أشير الى بعض تفسيرات تاريخية وردت في مقالته ، تمثيلاً لهذه الدقة وما يجب مراعاته في هذه المهمة . فهو مثلاً يقول ، حين عد شيوخ الأوزاعي وتلامذته : « وروى عنه جماعة من الذين سمعهم كقتادة والزهري وغيرهم » (ص ٤١٩ رسالة) وعلق على ذلك في الهامش رقم ٧ بقوله : « يظهر أن قتـادة والزهري كانا معاصرين للأوزاعي ، فسمع عنهم وبذلك نعدهم أسـاتذته ، ومن ثم رووا عنه ، ولذلك يصح لنا تجاوزاً أن نعدهم من تلاميذه » وتنظر أولاً إلى قوله إن قتادة والزهري كانا معاصرين للأوزاعي فلا ترى ذلك صواباً على هذا الاطلاق ؛ فهؤلاء من التابعين ، وليس الأوزاعي منهم — وإن ادعى بعضهم له ذلك — ثم هم على كل حال جيل آخر ، بين وفاة الأوزاعي ووفاة آخرهم نيف وثلاثون عاماً — قتادة توفي سنة ١١٧ ، والزهري سـنة ١٢٣ ، والأوزاعي توفي سـنة ١٥٧ — وتدع هذا فترى تفسير الـكاتب لأخذه عنهم وأخذهم عنه واعتبارهم تجوزاً تلاميذه ، تراه قلقاً مضطرباً . وكانت تدفعه ملاحظة عادة القوم في هذا النوع من الرواية الذي كانوا يسمونه رواية الأكابر عن الأصاغر ، ويفردونه بالبيان الخاص في أصول الرواية ؛ وكانوا يرمون فيـه إلى اعتبار خلق نبيل من تقدير العلم وأخذه حيث كان ، وحطم الـكبرياء المغرورة للأستاذية ، ليظل المروي عنه أبداً طالب عـلم ، ومرتاد حقيقة يأخذها حتى عن تلميذه ، وهذا التفسير نفسه منصوص في كتاب أحسن المساعي الذي أرجح كثيراً أن الـكاتب قد رجع اليه ، إذ ورد في ص ٥٢ — ٥٣ منه ما نصه « ... وحدث عنه جماعات من سـادات المسلمين ، كمالك بن أنس ، والثوري ، والزهري ، وهو من شيوخه ، وهذا من رواية الأكابر عن الأصاغر فان الزهري من التابعين ، وليس الأوزاعي من التابعين »

ثم إن الـكاتب صاحب المقال عن الأوزاعي يتعرض لقول جولد زهير بتأثر الفقه الاسـلامي بالفقه الروماني ، ويرى أن الأوزاعي أحرى بأن يكون آخر المتأثرين ؛ ص ٤٢٠ (رسالة) ؛ ويحتج لهذا الاستنباط « بأنه من أبعد الفقهاء عن الرأي ، ومن أقربهم إلى اتباع الـكتاب والسنة .... والـكتاب والسنة أبعد الأشـياء عن التأثر بالفقه الروماني » . ومع عدم تعضي للقول بهذا التأثر ، ومع القصد في بيانه ، فاني أرى هذا الاسـتدلال على عدم تأثر الأوزاعي غير مقبول من الوجهة الاجتماعيـــة والنفسية ، فان متبع الـكتاب والسنة لا بد له من أن يفهمهما ، ويتبين مراميهما، وأغراضهما ، وعللهما وحكمهما ، ولـكل شخص في هذا الفهم والتبين عقله الخاص ، وشخصيته الخاصة ، ومنهجه الخاص ، وذلك كله من أشد ما يكون تأثراً بالثقافة والبيئة ، فلا غرابة في أن يتأثر فهم الفاهم للـكتاب والسنة المتبع لهما ، تأثراً جلياً بعوامل تثقيفه ، وظروف حياته ، كما تأثر بذلك تفسير القرآن في كل الأزمنة ، بل كما تأثر بذلك فهم العقـائد وأصول الدين ذاتها تأثراً لا يسعنا إنكاره ؛ ولا قيمة لحرصـنا على هذا الانكار ، لأننا بذلك نقاوم سنن الله في خلقه

تلك مُثُل صغيرة لما تجب مراعاته في تفسير النصوص وفهمها والاستنباط منها ، حتى نوفق لـكتابة تاريخنا غير السياسي ؛ بل السياسي كذلك كتابة علمية صحيحة ، تنير ماضينا وتمد مستقبلنا بكل قوة وحقيقة

أمين الخولي

حول الأوزاعى أيضا

للأستاذ على الطنطاوى

أشكر للكاتب الفاضل صاحب ترجمة الامام الأوزاعى رضى الله عنه المنشورة فى الرسالة التاسعة والثمانين عنايته بدراسة تاريخنا الجليل ، واستخراج « جواهره » التى شغلتنا عنها « أصداف » غيرنا ، وأرجو أن يقبل هذه الملاحظات قبولاً حسناً ، وأن يعلم أن الذى حفزنى الى نشرها إنما هو حرمة الحق ، وأمانة التاريخ

١ — يقول الكاتب فى تحقيق نسبة الأوزاعى : (وقد اختلف فى معنى هذه الكلمة ، فمن قائل إنها بطن من ذى الكلاع من اليمن ، وقيل بطن من همذان « بالذال » ، وقيل إن الأوزاع قرية بدمشق خارج باب الفراديس) اهـ

والصحيح أنه ليس بين هذه الأقوال اختلاف ، فالأوزاع اسم قبيلة من اليمن ، سكنت هذا الموضع فسمى بها — كما ذكر ياقوت — ونسبهم فى حمير ولكنّ عدادهم فى همْدان — كما قال فى التاج — وهمدان — كما فى اللسان — قبيلة فى اليمن ، أما همَذَان التى ذكرها الكاتب فمدينة مشهورة فى أرض العجم ، وعجيب أن ينسب إليها الأوزاعى ، وأعجب منـــه أنه نقل هذه الرواية عن ابن خلكان ، وهى فى ابن خلكان فى الصفحة التى نقل منها الرواية ، همْدان بالدال لا همذان بالذال !

وقد وجدت فى كتاب — لا يحضرنى اسمه — أن الأوزاعى من العُقَيْبَة « قرية بظاهر دمشق » . والعقيبة اليوم حىّ كبير من أحياء دمشق ، بالقرب من السور خارج باب العمارة ، وهذا الباب هو باب الفراديس بعينه ، وهو لا يزال موجوداً ، ولا يزال داخله طريق موازٍ للسور ، يسمى طريق « بين السورين » ، فعلى هذا تكون العقيبة هى قرية الأوزاع

٢ — وقال الكاتب إن الأوزاعى (لم يكن يستعمل الرأى ، بل إنه — كما فعل غيره — عدل الى الكتاب والسنة) اهـ

والذى يفهم من هذه الجملة أن من يقول بالرأى يعدل عن الكتاب والسنة ، وهذا خطأ فاحش ، لأن أصحاب الرأى أو القياس ، لا يعملون رأيهم ، ولا يجرون قياسهم ، إلا فى المسائل التى لم يرد فيها نصّ من كتاب ولا سنة ، فهم يرجعونها الى هذين الأصلين ، ويطبقونها عليهما ؛ وليس لمسلم أن يقول فى الدين برأيه ، ويتكلم فيه بهواه ؛ والحنفية هم الذين يسمون بأصحاب الرأى ؛ وجميع الحنفية — كما يقول ابن حزم — مجمعون على أن مذهب أبى حنيفة أن ضعيف الحديث عنـــده أولى من الرأى والقياس . وقد قدّم أبو حنيفة رحمه الله العمل بالأحاديث المرسلة على العمل بالرأى فى مسائل عدة

ولعلّ الكاتب لم يقصد هذا الذى قد يفهم من كلامه !

٣ — وقال الكاتب : (ذهب بعض المؤرخين أمثال كولدزهير الى أن الفقه الاسلامى قد تأثر بالفقه الرومانى ، وأنا أقول إن كان هذا صحيحاً فأحر بالأوزاعى أن يكون آخر المتأثرين به لأنه من أبعد الفقهاء عن الرأى) اهـ

فلم يهتم الكاتب بدحض هذه الفرية التى افتراها كولدزهير وأمثاله من المؤرخين ، ولم يبين أنها فى رأى العلم خرافة من الخرافات ، وأن المحققين قد تكلموا فيها ، وبيّنوا خطأها ، بل كان جل همه أن يبرىء الأوزاعى منها ، ولو يسلم ضمناً بأن الفقهاء قد تأثروا بالفقه الرومانى !

على حين أنه لا يمكن أن يقوم دليل علمى واحد على أن الفقه الاسلامى مأخوذ من الفقه الرومانى[1] ، إلا إذا كان القرآن مترجماً عن لغة الرومان ، وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رومانياً خرج من أبوين عربيين ! والذى نقوله إنه إذا كانت هناك علاقة بين الفقهين ، فان الفقه الرومانى المعروف اليوم هو المقتبس عن الفقه الاسلامى ، ودليلنا على هـــذا أن الفقه الرومانى الحاضر جديد ، لفّقه طائفة من العلماء ، بعد أن اندثر الفقه الرومانى القديم ، وهذا الدليل على علاّته أقوى من دليلهم على دعواهم ، فليثبتوا إن استطاعوا أن الفقه الرومانى الحاضر هو القديم ذاته ، وليأتونا بالأسانيد الصحيحة والروايات المضبوطة ، كما نأتيهم نحن بأسانيد حديثنا ، وروايات سنتنا !

٤ — هذا وإن فى ترجمة الأوزاعى كتاباً قائماً برأسه نشره من عهد قريب كاتب الاسلام الأمير شكيب ارسلان فلينظره الكاتب الفاضل

على الطنطاوى

---

(١) نظن أن هناك فرقاً شديداً بين (التأثر) و (الأخذ)
الرسالة

الحكم فى المسابقة الأدبية

يذكر قراؤنا أننا نشرنا فى العدد ٧٩ من الرسالة قصيدة من الشعر الفرنسى عنوانها (ارتياب) للآنسة النابغة (مىّ) ومعها ترجمتها بقلمها ، وقد قدمتها إلى شعرائنا مقترحة أن ينقلوها نظماً إلى العربية جاعلة للسابق الأول جائزة ماليــة قدرها جنيهان مصريان ؛ وقد استبق إلى مقترح الآنسة الفاضلة سبعة وعشرون شاعراً من مصر ومن سائر الأقطار العربية . وفى مساء يوم الجمعة الماضى اجتمعت فى دار الشاعرة لجنــة التحكيم وهى مؤلفة كما ذكرنا فى عدد سابق من حضرات الدكتور طه حسين ، والأستاذ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور أحمد زكى ، ومحرر هذه المجلة ، فقرأوا القصائد ، ثم غربلوها ، ثم نخلوها ، حتى علق بالعيون ثلاث قصائد منها ، فأعادوا النظر فيها ، ثم وازنوا بينها ، فكانت الأولى لشاعر لم يذكر اسمه ولم يرمز اليه ، والثانية للأستاذ فخرى أبو السعود ، والثالثة لشاعر دمشق إمضاؤه ا . ط ، فقرروا نشر القصائد الثلاث وحكموا للشاعر الأول بالجائزة . والرسالة ترجو منه أن يرسل اليها عنوانه لترسل اليه حقه . وتلك هى القصائد :

القصيدة الأولى

ارتياب

أصـــــديقتى ذات العيو　　ن النجل ؛ قد ولى النهارُ !
والريح هــــوجاء تهب (م) بنا ، وليس لهـــا قرارُ
ولها أنينٌ ثائرٌ ،　　كالقلب عاوده ادّكارُ
ولها صدًى فى النفس مكـ　　ـبوتٌ عصىٌّ مُستثار
أصــــديقتى ، ذات العيو　　ن النجـل ! قد ولى النهار

* * *

بين الزهور جلست أحـ　　ـلُم فى حنين واكتئاب
والزعزعُ النكباءُ تـ　　ـعصِف كل آونة ببابى
والسحب باكية ، فوا　　شجنى لهذا الانتحاب !
فلكم يثير من الشجى　　فى مهجتى دمعُ السحاب !
بين الزهور جلست أحـ　　ـلُمُ فى حنين واكتئاب

* * *

هل تذكرين اليومَ رأ　　سَ العام ؟ ما أحلاه ذكرى !
يومٌ به السرّ الخفىّ　　أضاءَ فى عينيك سحرا
وهـــلالُ روحى عابدٌ　　مِنْ رُوحك المعبود بدراً
يومٌ به أوحيت فى نفـ　　ـسى حديثاً مستسرّاً
هــل تذكرين اليومَ رأ　　س العام ؟ ما أحلاه ذكرى !

* * *

أسفى لهـــذا الشهر قد　　ولّى ، وآذنَ بانتهاءِ
فيـــه رأيتك مرتيـ　　ـن ، لدى سويعات المساءِ
والآن أقضى الليـــل فى　　غير ابتهاج أو صفاءِ
واحرّ أشـــواقى لفجـ　　ـرٍ منك فتان الضياءِ
أسفى لهـــذا الشهر قد　　ولى وآذنَ بانتهـــاءِ

* * *

ليـــلٌ مطير حالكٌ　　وكأنه ليـــلُ الوداعِ
والفكر أقتمُ لم يزل　　وسط الهواجس فى صراعِ
أمسى الفؤاد ممـــزقاً　　بين ارتيابٍ وارتياعِ
ماذا لو أنّ فؤادَكِ الغـ　　ـرورَ أُولعَ بالخِـــداعِ
ليـــلٌ مطيرٌ حالك ،　　وكأنه ليـــل الوداعِ

القصيدة الثانية

ارتياب

أصديقتى يا ربّة الحَدَقِ العِذا　　بِ النُّجلِ رُوحى ردّدت نجواكِ
الريحُ فى هـــذا المساء عنيفة　　هوجاء ذات صدى عصىّ باكِ
جبّارةٌ أمسى عصيّاً داوياً　　فى النفس مكبوتاً صداها الحاكى
أصــديقتى ياربة الحدق . . .

مابين هاتيك الزهور جلستُ واسـ　　ـتسلمتُ للأحلام والأشجانِ
يغزو جناحُ النّوْءِ نافذتى وقد　　بكتِ السماءُ بدمعِها الهتّانِ
واهاً لذاك الدمع يجرى ناحباً　　ماذا يُحرّك فى مدى الأكوانِ ؟
مابين هاتيـك الزهور . . .

ياهل تراكِ ذكرْتِ فيما قد مضى　　يوماً لنا قد كان رأس العام ؟
يوماً بعفرى السر نوّرَ مقلةً　　خاطبْتنى منها بغـــير كلام
ورأتْ به روحى بروحك أختها الـ　　ـكُبرى ونلْتِ عبادتى وهيامى
ياهـــل تراك ذكرت . . .

قد راح شهرٌ بعـــد ذاك مولّياً　　ها نحن نرقُب منتهاه الدانى
ولّى وقد جادت بحُسْنِ لقاك مرّ　　تيتان فى أثنــائه ثنتانِ
والآن إذ تجذلى إلى غده انتهى　　أصبو إلى فجرِ مضى فتّانِ
قد راح شهر بعـــد ذاك . . .

هــذا مســـــاء ممطر متساقط   ساجى الدجى ، هذا مساء وداع
تمتامني غُبْرُ الهموم وقد مشى   رَيْبٌ بقلبٍ للجوى مُنْصاع
رَيْبٌ خبيثٌ ! ما ترى لولم يكن   لك غير قلبٍ مُزْدهٍ خدّاع ؟
هــذا مســـــاء ممطر متساقط   ساجى الدجى ، هذا مساء وداع

فخرى أبو السعود

القصيدة الثالثة

ارتياب

صديقتى ذاتَ العيون العذابْ   روحى تناديك ! فهل تسمعينْ
جُنّ جنون الريح هذا المساءْ   واندفعتْ صخّابةً كالحُمُ
تدْوى وذى صيحاً تُهاق الفضاءْ   تُعيدُ فى نفسى صداها الأصمّ
صديقتى ذات العيون العذابْ   روحى تناديكِ ! فهل تسمعينْ

* * *

هانذى أجلس بين الزَّهَرَ   حالةً مغمورةً بالشُّجونْ !
نافذتى تلطمُها العـــاصفه   والسحب تُذرى عبرات الحنانْ
للهِ هذى الأدمعُ الواكفه   ماذا ستذكى فى صميم الكيانْ
هانذى أجلس بينَ الزَّهَرْ   حالةً مغمورةً بالشُّجونْ

* * *

صــديقتى بالله هل تذكرينْ   أوّلَ هذا العام هل تذكرينْ ؟
إذ نَمّ عنك الكَلِمُ الصامتُ   ونورعينيكِ تمى السرْ ا(كذا)
ويوم نفسى،والفضانابِصتُ(كذا)   ألفتُ لديكِ روحها الكبرى؟
صــديقتى باللهِ هل تذكرينْ   أوّلَ هذا العامِ، هل تذكرينْ؟

* * *

شهرٌ تولى ومضى مُسرعاً   وراحَ يغفو فى خضمّ القرونْ
لم نحظ فى أيامه باللقـــاءْ   سوى مساءين ، ولم نسعدِ
والآن ، إذ فى الغدِ كلُّ الهناءْ   أذوبُ أشواقاً لفجرِ الغد ...
شهرٌ تولى ومضى مسرعاً   وراح يغفو فى خضم القرون

* * *

هــذا مســـــاءٌ دامعٌ قاتمٌ   مثــل أماسىّ الوداعِ الحزينْ
خواطرى فيه تُحاكى الدُّجى   والغمُّ فى نفسى طغى ، والملل
والشكُّ يلهو بىَ : ماذا تُرى   لوكان منك القلب جم الحيل؟
هــذا مســـــاءٌ دامعٌ قاتمٌ   مثلُ أماسىّ الوداعِ الحزين

دمشق   ا . ط

٧ – قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

اسپلنزانى Spallanzani

صلة حديثه

« القس الماكر الذى مالق الكنيسة والسلطات وهو يحتقرها جميعاً لكى يعيش ولكى يعمل فى سكون ؛ الذى ناضل نضال الجند بغير أهبة الجند وعدة الجند ؛ الذى أثبت من مرق اللحم أن المكروبات ككل الأحياء لابد لها من آباء ؛ الذى أهدى للعلم مثاته الوبيئة ، ذلك الأثر الوحيد الذى بقى للناس إلى اليوم من هذا الرجل الكبير الخالد »

وجرت مكاتبات كثيرة بين اسپلنزانى وبين الكثير من بحاث أوروبا وشكا كبها . وجرت صداقة بالبريد بينه وبين ڤلتير Voltaire ذلك الماكر الخبيث ، وشكا له فى كتبه أن إيطاليا ليس بها إلا أفذاذ قليلون من الرجال ذوى العقول الراجحة ، وشكا له الطقس والرطوبة والضباب . ودار الزمن فاذا اسپلنزانى يتزعم تلك العصابة الرعناء من الفلاسفة والعلماء الذين طلبوا الحق صادقين وأرادوا للناس السعادة والعدل مخلصين ، فاذا بهم يمهدون غير قاصدين لفتن هوجاء ، تلطخ بها وجه الأرض بأغزر الدماء

واعتقد هؤلاء العلماء أن اسپلنزانى قضى كل القضاء على تلك الفرية التى افتراها الخصماء حيث قالوا إن الحياة قد تنبعث من لا شئ ، وأخذ هؤلاء العلماء ، وفى طليعتهم « ڤلتير » ، يقهقهون بالنكات النادرة ، ويتندرون بالفكاهات المستملحة ، على القوة النباتية وعلى « بيفون » الفخم الطنان ، وعلى صبى معمله الأب « نيدم »

وبينا هم على هذا ، صاح نيدم : « ولكن هذه القوة النباتية موجودة يا قوم . إنها شئ مستتر خفى . حقاً إنها لا تُرى ولا توزن ، ولكن بسببها تخرج الحياة من مرق اللحم ونقيع الحب ، وقد تخرج بواسطتها من لاشئ . من الجائز أنها احتملت ذلك التحميص الشديد الذى أولاها إياه اسپلنزانى . إنها قوة أكثر ما تحتاج اليه مرونة الهواء ، وقد أغلى اسپلنزانى قبابته ساعة فأفسد مرونة [1] الهواء بداخلها ، ففسدت القوة النباتية فلم تتكون الأحياء »

سمع الطليانى بهذا فقام توا للصراع . ونادى نيدم : « هل من تجارب تثبت بها أن الهواء إذا سخن قلّت مرونته ؟ » . وانتظر التجارب فلم يجب نيدم بغير ألفاظ . فصاح به الطليانى : « إذن فأنا آتيك بالتجارب » . ورجع إلى معمله مرة أخرى فوضع البذر فى القوارير ، وصفها وأغلاها ساعة . وفى ذات صباح ذهب اليها يقصف رقابها . قصف الأولى وأرهف سمعه فسمع لها صفيراً . « ماهذا ؟ » . واختطف الثانية فأدناها من أذنه وكسرها فسمع لها صفيراً . « هذا هو الصفير يعود ! ومعنى هذا أن الهواء يدخل إلى القارورة أو أنه يخرج منها » . وأشعل شمعة وأدناها من فم قارورة أخرى وفض فاها فاذا اللهب ينعطف نحوها . فصاح : « معنى هذا أن الهواء يدخل القارورة ، ومعنى هذا أن الهواء بالقارورة أقل مرونة من الهواء خارجها ، ومعنى هذا أن نيدم قد يكون على حق ! »

وعندئذ أحس اسپلنزانى بجيشان فى معدته ، وأحس بالعرق يتصبب من جبينه ، وبالأرض تدور به . . . . أيجوز أن يكون هذا الأبله نيدم قد خبطها خبطة عشواء فأصابت ؟ أيكون قد تظنّن فيما تحدث الحرارة فى الهواء المخزون بداخل الزجاج المختوم فوقع على الحقيقة وهو لايدريها ؟ أيكون قد قُدِّر لهذا الفيهق الثرثار اللفاظ الهرّاء أن يفسد عليه الجهد الكبير الذى أنفقه فى استنباط الحقائق فى حرص وحذر كل هذه السنوات الطويلة ؟ وقضى اسپلنزانى أياماً وهو سقيم المزاج ، مشتت الفكر ، ضيق الصدر ، واشتد لتلاميذه واخشوشن من بعد رفق ولين . وأراد أن يروّح عن نفسه فأخذ ينشد شعر «دانتى» و «هوميروس» ، فلم يزده الانشاد إلا ضيقاً . واستيقظ فى نفسه شيطان أخذ يوسوس له : « قم وادرس لمَ يدخل الهواء داخل القبابة كلما كسرت ختمها ، فلعل هذا لاصلة له بمرونة الهواء» . وصاحبه هذا الوسواس الخناس وألحّ عليه حتى استيقظ ذات ليلة على صوته مخبولاً مرتبكاً .... وفى برهة كلمحة البصر وقع على تفسير

(١) لعله قصد بمرونة الهواء ضغطه

تعلو فى السائل ثم تهبط ، وهى تظل تتكاثر فيه أياماً . ألا ترى فى هذا عجباً ! ألم نقل دائماً أنه ما من حىّ يستطيع العيش من دون هذا الهواء »

كان اسپلنزانى مُعجباً بقوة خياله ، معجباً بسرعة خاطره ، وزاد إعجاباً بنفسه ، وزاده غروراً إعجاب طلبته ، وتَملّق الأوانس والغوانى ، وإطراءُ الأساتذة العلماء ، وتقريب الملوك الفاتحين . ولكنه كان الى جانب خياله يتعشق التجربة ، بل هو يقضى حقوق التجربة أولاً ثم يخال بعد ذلك ، فان هى عارضت خاطرة بديعة من خياله الخصيب فسرعان ما كان يقر بالحق ، وينزع عن خواطره مهما بلغت من الأبداع

وفى هذه الأثناء كان هذا الرجل الأمين ، الغالى فى أمانته فى كل مايتعلق بتجاربه ، هذا الرجل الذى كان لايخط قلمُه إلا الحق الذى يجده بين روائحه الكريهة وأبخرته السامة وأدوات معمله اللامعة ، هذا العالم الجليل الأمين ، نعم أعيد فأقول الأمين ، كان يتدنىّ الى الحيلة الخسيسة ليزيد مرتبه فى جامعة پاڤيا . هذا الرجل الشديد ، لاعب الكرة ، الكشّاف ، متسلق الجبال ، يأتى الى عاصمة النمسا متخاذلاً متواعكاً ،متأوهاً متوجعاً ، يشكو الى رجال الحكم فيها سوء صحته ، ويقول إن ضباب پاڤيا وأبخرتها تكاد تقتله . وأراد الامبراطور أن يستبقيه فزاد أجره وضاعف إجازاته . وتحدّث اسپلنزانى عن هذه الواقعة فضحك وسماها فى خبث مداورة سياسية . هذا الرجل كان يصل الى الغاية التى يريد فلايقف شىء فى سبيله . يريد الحقيقة فينالها بالتجربة البارعة وبالملاحظة القريبة والصبر المضنى ، ويريد المال والترقى فيناله بالعمل الشاق وأحياناً بالحيلة والكذب ، ويريد أن يتقى ظلم الكنيسة واستبدادها فينال ذلك بدخوله قسيساً فيها

ولما كبر وطالت به السنون تشهى الى تجارب غير تجارب معمله ، تجارب صخّابة عنيفة يطلق فيها القياد لنفسه وحسه ، فاعتزم أن يزور موقع طروادة القديمة لأن قصتها كانت تهزه هزاً ؛ واعتزم أن يزور الشرق بحريمه وأرقائه وخصيانه ، فقد كان يعتبر هذه الأمور جميعاً جزءاً من التاريخ الطبيعى كوطاويطه وضفادعه والحيوانات الصغيرة التى بنقيع بذوره . وشغّل الشفاعات ، وأعمل المحسوبية ، واتصل ورجا ، حتى أعطاه الأمبراطور إجازةَ عام ، وأعطاه نفقة السفر الى القسطنطينية ، كل ذلك لاستعادة صحته واسترداد عافيته ، وعلم الله ماكان أحسن صحته وأتم عافيته

وقام اسپلنزانى فاختزن قباباته ، وأغلق معمله ، وودع تلاميذه وداعاً حاراً استطاع أن يذرى فيه ماتيسر من الدمع . وركب البحر الأبيض فاعتوره دواره وآذاه إيذاء شديداً ، وارتطمت سفينته بالصخر وتحطّمت ، ولكنه استطاع أن ينجو وأن يُنجى ماكان قد جمعه من بعض جزائر البحر ، وجاء السلطان فأولم له وسقاه وأكرم وفادته ، وأذن له أطباء السراى فى دراسة عادات السرارى الجميلة . . . . . . وبعد كل هذا قال للأتراك ، وهو الرجل الأوربى الطيب — رجل القرن الثامن‌عشر — قال لهم إنه يعجب بكرمهم ، ويعجب بعماراتهم ، وما تضمنته من الفن الجميل ، ولكنه عقت‌استرقاقهم للجوارى والعبيد ، وعقت استسلامهم للأقدار والأقسام . فكنت تخاله يقول لصديقه الشرق ، والشرق رجل جامد ، تقوم حوله الدنيا وهو قاعد ، وتجرى عليه الأيام وهو مركوم ، وتنبو عنه الحوادث وهو ملموم ، كنت تخاله يقول له : « نحن الغربيين سنفتح بعلمنا الجديد هذا من الأمور مالا يفتح ، ونجتاز به مالا يرجى اجتيازه ، وسنمحو عن الانسان وبنى الانسان هذا العذاب الأبدى والشقاء السرمدى الذى يئست الدهور من محوه » . كان اسپلنزانى يؤمن بالله ، ويؤمن بقدرته وجبروته ، ولكنه كان بحّاثاً نقاباً طلاباً للحقائق فكانت تغلبه غيرة الباحث وروح المنقّب على كل ما يقوله ، وتسيطر على كل ما يفكر فيه ، حتى ينسى الله ، وحتى ليعتذر عنه آناً فيسميه الطبيعة ، وآناء أخرى فيسميه المجهول ، وحتى دفعته الى أن يُنصِّب نفسه شِبْه وكيل أول لله ، يفتتح وإياه مجاهل هذه الطبيعة الغامضة ويكشف أسرارها

وبعد أشهر عديدة قضاها فى الشرق عاد أدراجه ، لا عن طريق البحر هذه المرة ، بل عن طريق البلقان ، وأنفذت معه الحكومات من الجند أصوبهم رماية ، وأولم له أشراف البلغار وأمراء الأفلاق . وأخيرا دخل ڤينا عاصمة الامبراطورية وذهب الى الامبراطور يوسف الثانى ، صاحب نعمته وراعيه ، ليقضى واجب الشكر ويقدم فرائض الاحترام . وكانت هذه الساعة أفخم ساعات حياته ، وأملؤها بالمجد ، ذلك المجد الذى يعطيه الملوك والأمراء . وأسكرته خمرة تلك الساعة ، وذهب دبيبها الى رأسه ، ومشت سورتها الى أعماق نفسه ، فكنت تسمعه يقول : « ما أحلى تحقق الأحلام » . ولكن . . . .

(يتبع)

احمد زكى

الى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

رؤيا في السماء

بقلم الأديب فليكس فارس

إنك تتناول أدق المباحث الأجتماعية التي شغلت ومازالت تشغل المفكرين في كل عصر وفي كل بلاد ، تتناولهـا وتخوض غمارها معتكفاً على موضع السر في ثقافتك العربية ، مستنيراً بأضواء الكتاب الحق وحكمة من اهتدوا قبلك في هذا الشرق النيّر ، فكانت عبادتهم فلسفة ، وكانت صلواتهم استغراقاً وتفكيراً

كثير من مجددي الأنشــاء في هذا الزمان ينحرفون عن ثقافتهم وغرائزهم القومية ، فينتحلون مذاهب كتّاب الغرب وأساليبهم ، أما أنت فمن الفئــة القليلة الآخــذة بروح الشرق لأحياء الشرق ، النافخة في الأحفاد أرواح أجدادهم

قرأت لك في منارة العرب الوهّاجة ، في (الرسالة) ، ماتتحف به العالم العربي من طرائف وبدائع ، فأيقنت أنك من الكتّاب العالميين الذين يستمدون آياتهم من الألهام ، ويستجلون الحقائق من قلب الحياة الخفّاق ، وما أقل من ينحنون على أنفسهم في هذه البلاد حين يكتبون ! وما أكثر من يستطيعون الرواسم وينقلون مقلّدين مشوهين !

بين مانشرته لك (الرسالة) قطعة (رؤيا في السماء) وقفت عندها مأخوذاً بروعتها ، فأردت أن أنقلها الى اللغة الفرنسية لنشرها في مجلة أدبية في باريس ، وقد ترجمتها فجاءت بما أبقيت لها من أسلوبك الفخم دليلاً على استقلال لغــة العرب عن كل هذه الأساليب التي ينتحيها أكثر كتابنا مأخوذة عن الأسلوب الغربي ، وعلى تفرّد بيانها بهذا الايجاز المعجز وفيه سر سحرها وبهائها

إن في مقالك من الدفاع عن حق الحياة وواجبات الحياة ما يعزز الوحي الذي أنزل على عيسى ومحمد (عليهما السلام) تحت سماء الشرق ، فلم ينفذ الغربيون الى كنه مبادئ المسيحية إذ ذهبوا منها في مسألة التبتل مذهباً أتى به الحواري بولس متأثراً بفلسفة الرومان وضائقـــة أزمنة الاضطهاد ، لذلك ترى الأمم الغربية عند ما تقف واجفة من تناقص النسل تهب الى معالجة الاخطار المحدقة بها متوسلة بنظريات الكفاح والتفوق على الأمم المجاورة ، فهي ترمي طغمات الأطفال فيالق للجهاد في ساحات الحروب من أجل المال ، وكتــلاً من لحم تعصرها الآلات عصراً فتتدفق بدمائها رحيقاً تتجرعه المدنية سماً زعافاً

إن الغربيين ليفوتهم أن يحاربوا أعــداء الأسرة والنسل بالمبادئ الروحية تتناول ماوراء هذه الحياة . وما أذكر مما قرأت لكتاب الغرب أنهم شعروا بالأبوة كما شعرت بها أنت مخترقة حجاب الموت لتتجلى عند هدفها الأسمى في عالم الخلود

إن الأدب الغربي يقف بالأبوة عنــد نهاية الشطر الفاني من الحيــاة ، فهو يرى الأرحام تدفع بالأجنة للقبور لا للأبد ، لذلك أردت ألاّ يفوته ما أتيت به في مقالك الرائع من دعوة هي أقوى ما يتوسل به داع إلى حق الله في تناسل عباده . وقد ترجمت هذا المقال لا مباهاة بروح الشرق العربية التي تهب من كل سطر فيه فحسب ، بل لأنشر أيضاً في الغرب ما استوحته عبقريتك الشرقية من مبادئ الهداية الخالدة

إن هذا الحديث الذي أنطقت به أبا خالد وشيخه أبا ربيعة ، لخير ما ابتكرته الآداب العالية في هــذا المطلب ، وهذه الرؤى التي تقبض على الروح وترفعها قسراً إلى عالم الخفاء لتبسط من الحق أمام المتطلعين إلى ماوراء المادة ما يشعرون به في قرارة نفوسهم وينكرها عليهم عقلهم المنتبه المحلل الغارق في لجج الزائلات من قوة ومال ودول وجنود وحروب

غير أنني قبــل أن أعلق على مقالك بما لا أرى بداً من إيراده بالفرنســية ، أجدني مضطراً لايضاح وجيز لا أراك تضن به ، فان في ختام مقالك ما يفسح للفكر مجالاً للذهاب مذاهب تختلف اختلافاً بيناً عند النتيجة التي ترمي إليها

قلت : إن أبا ربيعة وقف في آخر حلمه تمر به طغمة الخالدين وتلق إليه بكلمة (المشئوم) حتى مر غلام هو آخرهم فقال له :

« كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله ، ثم ماتت امرأتك وتجزنت على ما فاتك من القيام بحقها ، فرفعنا عملك درجة أخرى ، ثم أمرنا الليلة أن نضع عملك مع الخالفين الذين فروا وجبنوا »

فهل لك أيها الأستاذ الكبير أن تأتينا بايضاح عما رآه الحق

للمعمل الذى هو فيه ، يجرى الى معمله ، وكان نضده قد تغطى بقوارير مكسورة وزجاجات مهجورة تبعثرت جميعها عليه فكانت شواهد على ما كان فيه رجلنا من ترك ويأس . ومدّ يده الى قِمَطر فأخرج منه قبابه . لقد كان ضلّ الطريق واليوم اهتدى اليه ، وعما قريب يثبت أن نيدم مخطىء ضـال . وتعطى بملأ رئتيه وُسْعهما ، ثم زفر زفرة طويلة أبدلته من ضيق سعة ومن أزمة فرجا . ومع أنه لم يكن أثبت أن ما بدا له هو التفسير الحق لصغير الهواء ، إلا أنه وثق بالذى ارتآه وثوقاً آثر معه أن يستعجل الغبطة والسرور . ونظر الى القبابات وابتسم وقال : « كل القبابات التي استخدمتها فيما سبق كانت لها رقبة واسعة استلزمت حرارة كثيرة وتسخيناً طويلاً لتسييح ويتم ختمها . وهذه الحرارة الكثيرة تطرد الهواء من القبابة قبل لحامها ، فلا عجب إذن أن يندفع الهواء فيها إذا فُض اللحام »

وارتأى أن ما قاله نيدم عن إغلاء القبابات الملحومة فى الماء وإفساده مرونةَ ما بداخلها من الهواء كلام هراء . ولكن أنىّ له باثبات ذلك ؟ أنىّ له بختم القبابة دون أن يطرد هواءها ؟ وجاء شيطانه يوسوس اليه ، فأخذ قبابة أخرى فوضع بها بذراً وملأ بعضها بالماء ، وأدار رقبتها فى اللهب الشديد حتى ساحت وضاقت حتى كادت تلتحم إلا ثقباً صغيراً ضيقاً يصل بينها وبين هواء الجو . عندئذ برّد القبابة ؛ حتى إذا تمت برودتها قال : « إن الهواء بداخلها لابد أن يكون مثله بخارجها . ثم جاء بلهب صغير سلطه على الثقب الباقى وهو كعين الابرة فسدّه فى لمحة دون أن ينطرد من هواء القبابة شيء . فلما اطمأن الى ذلك وضع القبابة فى الغلاية وأخذ يرقبها ساعة ، وبينا هى تتأرجح وترقص فى الماء كان هو ينشد الشعر ويترنم بالغناء . ثم نحاها أياماً ، وفى ذات صباح جاء ليفتحها وهو واثق مما سيكون ، فأشعل شمعة وأدناها من فم القبابة ، وفى حذر شديد كسر فاها فسمع صفيراً ، إلا أن لهب الشمع لم ينجذب الى القبابة فى هذه المرة بل مال عنها ، دليلاً على أن مرونة الهواء داخلها أكثر من مرونته خارجها !

فكل هذا الغلى لم يفسد مرونة الهواء ، بل على النقيض قد زاد مرونة ، تلك المرونة التي قال نيدم بضرورتها لتلك القوة النباتية العجيبة . وأخرج اسبلنزانى من المرق القطرة فالقطرة ، وعبثاً حاول أن يجد فيها من الأحياء شيئاً برغم ازدياد مرونة الهواء . وأعاد التجربة فالتجربة بتلك الشارة التى عرفناها عن « لوفن هوك » ، وكسر قبابات وكبّ المرق على صدر قميصه ووسخ يديه ، ولكنه لم يخرج على غير تلك النتيجة التى سلفت

— ٥ —

انتصر اسبلنزانى فصاح بتجاربه ليسمع أوروبا ، فتردد صداه شرقاً وغرباً ، وسمعه نيدم وبيفون فجلسا على أنقاض نظريتهما البالية ينعيان أطلالها فى كآبة ظاهرة وحزن باد . وما كان لهما مندوحة من هذا ، وقد أفسدها عليهما هذا الطليانى بحقيقة واضحة بسيطة . فلما اطمأن على الذى كان ، جلس يكتب . وبمقدار براعته فى المعمل كان بارعاً فى المكتب ، وعلى حسن رجلاده بالقبقاب والمدس ، كان يحسن الجلاد بالقرطاس والقلم ، على شريطة أن يكون قد اطمأن إلى أن حقائقه العملية قد سبقت فغلبت فى الصراع خصيمه ، وهذا ما كان ، فهو فى هذا الوقت كان قد اطمأن إلى انصراع نيدم ، وإلى ضياع نظريته الفكهة التى تنشئ الشئ من لا شئ . وكان اطمأن إلى أن الحيوانات جميعاً — حتى تلك الحيوانات الصغيرة — لا تأتى إلا من حيوانات مثلها عاشت من قبلها ، وإلى أن هذه المكروبات الصغيرة تظل طيلة حياتها مكروبات من النوع الذى كانته آباؤها ، فاذا هى أنتجت كان نتاجها من جنسها ؛ كذلك الحمار فى حياته لا يستحيل جملاً ، وهو لا يأتى إلا من حمار ، فاذا ولد فانما يلد حماراً

وصاح اسبلنزانى يقول : « واختصاراً قد ثبت أن نيدم مخطئٌ ، وقد أثبتُّ فوق هذا أن فى علم الأحياء نظاماً وقانوناً ، كما أن فى علم الأفلاك قانوناً ونظاماً » ثم أخذ يصف ما تكون حال هذا العلم لو أن نيدم لم يجد من يراقبه ويحاسبه ، إذن لعشنا فى اختبال وارتياع من نزق هذه « القوة النباتية » المتقلبة الهوجاء تلك القوة التى إن هى شاءت أخرجت من الشئ ضفدعة ، وإن هى شاءت أخرجت منه كلباً ؛ أو هى تخرج منه اليوم فيلاً ، وغداً عنكبوتاً ؛ أو تخرج منه فى الصباح حوتاً سابحاً ، وفى الظهر بقرة حلوباً ، وفى المساء إنساناً ناطقاً

قُضى على نيدم ، وقُضى على قوته النباتية ، وأصبح الانسان يستمرئ العيش ، ويستنشق الهواء فى أمان وسلام ، فلا تروعه تلك القوة الرهيبة اللعينة التى كان يتخيلها مخبوءة فى هذا الركن ووراء ذلك الحائط تنتهز الفرصة لتحيله فيلاً أو تخلق منه غولاً

وسرى اسم اسبلنزانى فى جامعات أوروبا يسطع كالماس ، ويتألق كالنجم . وأيقنت جماعاتها العلمية بأنه عالم العصر الأوحد وكتب اليه فريدريك الأكبر Frederick the Great كتباً طويلة ، وبيمينه أمضى براءة تعيينه عضواً فى أكادمية برلين . وماريا تريزا maria Theresa امبراطورة النمسا وعدوة فريدريك اللدودة ، نافست هذا الملك العظيم فى تكريم هذا العالم الكبير ، فنفسته ، وذلك أنها عرضت عليه أن يكون أستاذاً فى جامعة بافيا Pavia العتيقة بلمباردى Lombardy فانفذت اليه رسلها من عظام مستشاريها فجاءوه فى حفل ضخم ، وموكب فخم ، متقلين بكتب ملكية ، وأختام امبراطورية ، يتوسلون اليه فى قبول المنصب عسى أن تجد جامعتهم فيه منقذها من السوء الذى هى فيه ، ورافعها من الدرك الذى هبطت اليه . وجرت بينه وبينهم مناقشات ، وجرت مباحثات ومساومات ، فى الأجر الذى يتقاضاه اسبلنزانى ، فقد كان دائماً يحسن جمع المال كلما أمكنته الفرصة . وانتهت تلك الأحاديث بقبوله أستاذية التاريخ الطبيعى بالجامعة ، وبتنصيبه أميناً لمتحف التاريخ الطبيعى فى بافيا كذلك

وذهب إلى متحف بافيا فوجده خاوياً خالياً . فشمر من ساعده ، وأخذ يحاضر فى كل ما هب ودبّ ، ويلقى دروساً فى الجمهور يضمنها تجارب كبيرة هائلة يجريها على سمعهم وأبصارهم فهالت الناس وراعتهم ، لأن النجاح كان يأتيها دائماً من حذق يديه ، وأراد أن يملأ متحفه الخالى فأرسل إلى هنا وإلى هناك فى طلب مجموعات من حيوانات عجيبة ونباتات غريبة وطيور لا يعرفها القوم . وذهب هو بنفسه إلى الجبال فتسلقها على خطورة مرتقاها ، ورجع منها بركائز كثيرة وخامات غالية . وذهب إلى البحار يصطاد قروشها المفترسة ، وإلى الغاب يقتنص من ذوات الريش كل ذات لون بهيج . ذهب كل مذهب ليس من اليسير تحقيقه ، وضرب كل مضرب ليس من الهين تصديقه ، وكل هذا فى سبيل الجمع لمتحفه ، وفى سبيل التخفف من ذلك النشاط الجم و تلك الطاقة الصخابة التى امتلأ بها جلده فخرجت به عما وسم العرفُ به العلماءَ من طمأنينة وهدوء .

وفى الفترات التى تخللت هذا التجميع وهذا التدريس ، كان ينفلت الى معمله بأسراره وبمجاهره فيغلقه على نفسه ، ويجرى فيه التجارب الطويلة لتزيد فى إثبات أن الأحياء الصغيرة تنصاع لقوانين الطبيعة انصياع الخيل والفيلة والرجال لها . ووضع قطرات من أحسينه وهى تموج بالمكروب على قطع من الزجاج المنبسط ، ونفخ فيها من دخان تبغه ، ثم أسرع فنظر إليها بعدسته ، ثم ضحك ملءَ فيهِ عندما رآها تتهارب لتتقى أثرَ دخانه ، وأطلق عليها شرراً كهربائياً ، وعجب لما رآها تطايش وتميد ، ثم تتمطى وتموت سريعاً

قال اسبلنزانى : « إن بذور هذه الأحياء الدقيقة أو بيضها قد يختلف عن بيض الدجاج أو بيض الضفدع أو بيض السمك ، وهذه الأحياء نفسها قد تصمد للماء الغالى فى قبابانى المختومة ، ولكن عدا هذا فهى يقيناً لا تختلف عن سائر الحيوانات » . ولم يكد أن ينطق بهذا اليقين حتى عاد يسترد ما انفلت به من أنفاسه

فذات يوم وقد انفرد فى معمله قال لنفسه : « كل حيوان على ظهر هذه الأرض لا بد له من الهواء ليحيا ، وإذن فلأثبتن حيوانيّة هذه الأحياء الصغيرة فأضعها فى فراغ خلو من الهواء وأرقبها وهى تموت » . وببراعة بيّنة مطّ بالنار من أنبوب الزجاج السميك أنبوباً شَعْرِيّاً رفيعاً كما كان يصنع « لوفن هوك » وغمس أنبوبة منها فى مرق يعجّ بتلك الأحياء ، فصعد فيها منه شىء . وأساح أحد طرفيها فى النار فسدّه ، ووصل الطرف الآخر المفتوح بمضخّة قويّة لتفريغ الهواء ، وشغّلها ، ولصق عدسته بجدار أنبوبة الزجاج الرفيع ، وأخذ يصوّب بصره إلى تلك الأذرع الدقيقة التى منحها الله لتلك الأحياء لتجدف بها فى الماء ، وظل يرقب من ساعة لأخرى علّه يجد فى حركتها المنتظمة الهادئة مَيَداناً وطَيَشاناً ، وأخذ يتربص الفناء بتلك الأحياء ، ولكن المضخة ظلّت فى دورانها ، وظلت الأحياء فى جريانها وروغانها متناسية صاحبنا العالم ومضخته البديعة ، متجاهلة هذا الهواء الذى يقول بلزومه لحياة الأحياء . وعاشت أياماً . وعاشت أسابيع . وأعاد اسبلنزانى تجربته المرة بعد المرة . هذا غريب ! . هذا محال . لا يعيش حىّ بلا هواء ، كيف تتنفس هذه الأحياء . وكتب الى صديقه « بونيت » Bonnet متعجباً مستغرباً : —

« إن طبيعة هذه الحُيَيْوانات مدهشة . فانها تعيش فى الفراغ مثل عيشها فى الهواء ، وتنشط فى هذا نشاطها فى ذلك ، فهى

تخلفاً وجبنا فى أبى ربيعة . فهل استحق هذا الشيخ نعته بالمشئوم لأنه ، وقد استهوته عظة رفيقه ، آلى على نفسه أن « يحول المرأة التى كانت فى قلبه إلى صلاة » فأراد قتل تذكارها بالوفاء لله دون الوفاء لها فى قبرها . أم كان ذلك لأنه قرر التبتل بعدها فلا يأخذ من بنات حواء من تقوم مقامها

إن من ينظر إلى حديث الشيخين ويأخذ بما ورد فى القصة وفى ختامها ليقف مخيراً محتاراً بين السببين ، وليس غير الأستاذ الكبير من يزيل هـذا الابهام فيأتى بمقال عن مسألة لها مكانها بين العقد الاجتماعية ، فيقول لنا ما إذا كان المثل الأعلى فى العلاقة الزوجية محبة الشخصية فى الأنوثة أم محبة الأنوثة ، فى الشخصية

اسكندرية — فليكس فارس
رئيس قسم الترجمة فى البلدية

٣ ـ الأمير خسرو

الشاعر الهندى الكبير

للسيد أبى النصر أحمد الحسينى الهندى

إن اتصال الشعر دائماً هو بالماضى وبالحال ، فان اتصل بالمستقبل فذلك بواسطة الحاضر . فما يقدم لنا الشعر إما من قبل « كان » أو « يكون » : ولكنه يجمع ويرتب الحقيقة من جديد . لذلك حينما يسعى لاخراج فكرة من تلك الأمور الواقعية وتنافرها ونقائصها ، يميل بطريق راهن إلى ما لم يجمع ولم يرتب . فالشاعر لا يمثل الواقع كما هو ، بل يخلقه من جديد بقوة خياله . لذلك ليس الشعر هو التمثيل البحت للحقيقة ، بل الخيال دائماً يكون أعظم جزء فى أساسه . هذا ما يشرحه لنا شعر خسرو فى البيتين الآتيين [1] قالها فى مدح كرم حاتم خان قال :

قلت للبحر أنت كريم مثل خان
فأجاب بصوت مرتجف لا ! لا !
إن أمواجى الشحيحة تلقى عشباً لا قيمة له

ولكن حاتماً يمطر الجواهر فى نحره الكريم

إن الشاعر يجد فى سعة الطبيعة مستودعاً كبيراً للأشباح والصور التى تعبر عن أدق المراتب للفكر الانسانى وعواطفه . فنى هذا المستودع تطوف روحه طليقة ، وفيه تدبر وتفكر حتى تنتج . فالشاعر يشعر بكل مظهر حوله كأنه رمز لشئ يتعلق بالعالم الآخر ، وكأن كل شئ مؤثر فى حواسه شبيه بالغائب المحجوب ، وكأن الطبيعة بأسرها محبوكة كالأعضاء بالمشابهة والمماثلة عما هو خفى فيها ، وكأن كل وجود مستقل متصل فى جميع فروعه بغيره بواسطة رمز دقيق . وهذا هو الفرق بين العلم والشعر ، فان العالم يقسم ويحلل والشاعر يجمع ويركب . فأنت ترى كيف أن خسرو جمع بين رفع الحجاب عن وجه محبوبه ، وطلوع الشمس ، وصلاة الصبح ، فى البيت الآتى وأوجد بينها الاتصال الشعرى الدقيق الجميل قال :

برداشت طره أزرخ چون روزرفن كرد
برمن نماز صبح بوقت نماز شام
كشف (الحبيب) القناع عن وجهه عند مادُفن
النهار ، (فأوجب) على صلاة الصبح فى وقت الليل

إن أهم ناحية من نواحى الشعر هى الحب والغرام ، وقد قالوا إن من حسن الشعر وجماله أن يكون له اتصال بنفسية الشاعر ، وأن يكون عليه مسحة من تجاربه النفسية . وبخاصة فى هذه الناحية ، فانه إذا تجرد عن ذلك أصبح تصنعاً وخداعاً . والشعر فى هذه الناحية يصور تصويراً شعرياً دقيقاً ما بين قلب المحب والمحبوب من الأثر والتأثر ، والجذب والانجذاب ، والعزم والانثناء ، والصبر والجزع ، والرضا والسخط ، والهجر والوصال . وشاعرنا العاشق قد صوره فى غير واحد من الديوان وعبر عن حبه بآلاف من الأبيات . نقتطف بعضها هنا قال :

دلم به ناوك چشمت هزار روزن شد
زصورت تو بهر روزن آفتابى هست
شب من أزجه سبب تيره ترشود هر روز
جوازرخ تو بهر خانه ماهتابى هست
« إن سهم عينيك قد ثقب قلبى آلافا من الثقوب ، وفى كل ثقب شمس محياك طالعة . »
« لِمَ تظلم ليلى كل يوم مادام قمر وجهك طالعا فى كل بيت . »

---

(١) كذلك راجع الأبيات التى قالها خسرو فى مدح ملك شجو . وقد نقلناها إلى العربية فى المقال الأول فانها أكثر دلالة من هذين البيتين على ما قلنا . وقد ضربنا صفحا عن نقلها هنا خوفاً من الاسهاب والتكرار

وقال :

عاشــق شــدم ومحرم اين كارنه دارم
فريادكه غم دارم وغمخورانه دارم
يك سينه بزار قصه هجراست وليكن
ازتنكد لى طاقت كفتــارنه دارم

« إنني عشقت وليس من يعرف عملى هذا . واحسرتاه ! عندى ألم ، وليس لى رفيق فى الألم »

« إن صدرى مملوء بحكاية هجر (المحبوب) ، ولكنى من ضيق صدرى لا أقدر أن أعبر عنها . »

وقال :

جندمى برسى كه خسرو راكه بكشت
غمــــزه توجشم توا بروى تو

إلى متى تسألين من قتل خسرو ؟
ماقتله إلا لحظك وعينك وحاجبك

وقال :

بجان رســيدم وازدل خبر نمى يابم
وزآنكه برد دلم نيزا ثرنمى يابم

وقال :

بهارآن وكلها شكفت ليك جه سود
كه بوى توز نسيم سحر نمى يابم

« دنوت من الموت وليس لدى خبر عن قلبى ، ولا أجد أثر من خطفه . »

« جاء الربيع وتفتحت الأزهار ، ولكن لا فائدة لى منه ، لأنى لا أجد ريحك فى نسيم الصبح »

وقال :

مردمان درمن وبيهوشى من حيرانند
من درآنكس كه ترابيند وحيران نشود

« يعجب الناس منى ومن فقدان صوابى ، وأنا أعجب ممن رآك ولا يفقد الصواب »

وصف أرسطو الشعر أنه رمز إلهامه أو محاكاة عمل ذلك الالهام . وذهب دانتى إلى أن عمله هــذا أيضاً رمزى ، فالكلام الشعرى الذى يقوله الشاعر لا يمثل ذلك العمل فى شكل وقوام فنى خاص ، بل يقدم فيــه المعنى الرمزى له . فأنت ترى خسرو كيف رمز إلى شدة معاناته فى الحب فى البيت الآتى حين أشار إلى أنه عرف قدر الليل بألم الأرق ، ولكنه لم يقدر أن يقيس ليلة الهجر بألم الهجر العظيم حتى بعد معرفة الليل ، فان مقياس إدراك الأسباب للآلام هى الآلام قال :

« ازين دو ديده بى خراب شب شناس شدم ،
ولى قياس شب هجر درنمى يابم »

« إنى عرفت قدر الليــل بعينى هذه المؤرقة ، ولكنى لم أجد قياساً لليلة الهجر »

قال شبلى : إن الشعر ليس له أثر أخلاق بغير تعيين ناحية خاصة من نواحى الأخلاق . لأن حقيقة الأخلاق عنده هى الحياة الفكرية فى أعلى سموها وأبهى جمالهــا . ومظهر حيوية الفكر الخيال الذى يغذيه الشعر . ففى الشعر نعيش فى العــالم الذى يصدر منه شعورنا بغاية الأشياء وبالخلق العملى فالأبيات الآتية لخسرو تبين لك ماذهب اليه شبلى قال ما ترجمتُه :

« ما دام الحبيب معنا فلم نستعجل رؤيته ؟ ومادام يوسف فى مصر قلبنا ، فَلِمَ يجرى نهر النيل من عيوننا ؟ »

« طلبت منه قتلى بلحظه القتّال فقال ، مادام الصياد فى كمين فلماذا يستعجل الصيد ؟ »

« إن سالكى طريق العشق لايبالون بالراحة والألم ، إن عشاق الكعبة لايسألون عن الطريق والميل »

(البقية فى العدد القادم) السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

موكب آذار

الربيع

لشاعر الشباب السوري أنور العطار

عضو المجمع الأدبي

كل شيء هنا يغني ويحيا
نغماً ممتعاً وشدواً عجيبا

يا حبيبي أفِقْ فقد ضَحِكَ الرَّوْ ... ضُ وأبدى جمالَه المحجوبا
واستعادَ الوادي الأنيسُ سناه ... وبنى الطيرُ عُشَّهُ المخروبا
طَرِبَ القلبُ فانتشى وتغنَّى ... ومِنَ الحبِّ أن أعيشَ طَروبا
وأنا الشاعرُ الذي يَغمُرُ الأرْ ... واحَ ضِحْكاً وما يريمُ كئيبا
في فؤادي اللهيفِ داءٌ قدِ استعْ ... صَى وجُرْحٌ يُمِضُّني تعذيبا

* * *

يا حبيبي دُنياكَ تَطفحُ بالحُسْـ ... ـنِ فَخُذْ لِلفؤادِ منها نصيبا
هاتِ نايَ الهوى وقُمْ نملأ الأكْ ... وانَ من سَكْرةِ الغناءِ ضُروبا
لا تُرَعْ فالحياةُ يومٌ ويمضي ... ليس يُرجَى لِطيفِه أن يؤوبا

* * *

رَفْرَفَ الرَّوضُ وازدهى وتجلَّى ... رائعاً فِتنةَ العيونِ قشيبا
هو ذا موكبٌ لآذارَ حلوٌ ... يتمشَّى على السهولِ لعوبا
ملأَ الأرضَ والسمواتِ عِطراً ... ونفى الهمَّ والضنى والشحوبا
وعلى مِعطفِ المروجِ تراءتْ ... قُبَلٌ لِلربيعِ تنفحُ طِيبا

* * *

اليواقيتُ في النواظرِ ذابت ... وجرى السحرُ بالضياءِ مَشوبا
جدولٌ يُترِعُ القلوبَ غِناءً ... ظلَّ من موجِهِ السنيِّ سَكوبا
ألمسُ النورَ في تلاميعِهِ الزُّهْ ... رِ وأشتمُّ روحَه المحبوبا
وأرى العطرَ وهو هيمانُ في الدَّوْ ... حِ يُناجي في غُصنِه العندليبا
وأحسُّ الحياةَ تركضُ في العُشْ ... بِ وتسري بين الحقولِ دبيبا
نَفَسٌ هامسٌ وآخرُ شادٍ ... ورُؤًى همَّ سحرُها أن يجيبا
كلُّ شيءٍ هنا يُغنِّي ويحيا ... نغماً ممتعاً وشدواً عجيبا

ها هنا تسمعُ الأناشيدَ أُذْني ... وترى العينُ في كراها الغيوبا
ها هنا يركَنُ المحبُّ إلى الأُنْـ ... ـسِ ويُنفي الفؤادُ إلّا وجيبا

* * *

يا حبيبي أفِقْ فهاذاك طيرُ الـ ... ـحُبِّ قد أسكرَ الرُّبا تطريبا
تتراءى له السمواتُ أحلا ... ماً وتبدو الأرضُ الفضاءُ قلوبا
يا حبيبي هنا الهوى فاغتنِمْهُ ... لستَ عن جُرْحِهِ العميقِ غريبا
لكَ من هذهِ الدِّغالِ أليفٌ ... يتصبّاكَ فاتناً وحبيبا

* * *

ورياضٍ فيها المشاشُ تُغنِّي ... فيذوبُ الغناءُ خمراً صبيبا
إنّ هذا الجمالَ يا قلبُ نَهبٌ ... فابتدِرْ نخطفِ السَّنا المنهوبا
إحيَ لِلنورِ، لِلمسرَّةِ، لِلشدْ ... وِ، وخَلِّ الأسى وخلِّ النحيبا

دمشق ... أنور العطار

زهرة آذار

بقلم أمجد الطرابلسي

(مهداة إلى صديق أنور العطار)

يا زهرةً بعدَ طويلِ الأسى ... جادتْ بها أفراحُ آذارِ
حُيِّيتِ بل قُدِّستِ من زهرةٍ ... رَفَّتْ رفيفَ الحُلُمِ الساري
حُيِّيتِ من مزهوَّةٍ كالصِّبا ... مُحْمَرَّةٍ كاللهبِ الواري

* * *

طلعتِ فانجابتْ غيومُ الأسى ... مِنْ بعدِ أرياحٍ وأمطارِ
بسمتِ للروضِ وحيَّيتِهِ ... تحيَّةَ الغائبِ للدارِ
فضجَّ بِشراً واكتسى حُلَّةً ... بيضاءَ من نُورٍ ونوّارِ
وانبعثَ الوُرْقُ بأفيائِهِ ... تشدو لآصالٍ وأسحارِ
ودَغدغتْ أفنانَه نسمةٌ ... تخطِرُ بين الآسِ والغارِ

* * *

تاللهِ ما أدري أيا زهرتي ... ما هِجْتِ في قلبي وأشعاري
تركتِ قلبي أيَّ مستعبرٍ ... ينزو، ودمعي أيَّ مدرارِ

(البقية في الصفحة التالية)



القصص

من أساطير الإغريق

پرسيوس وأندروميدا
والجرجون الثلاثة

للأستاذ دريني خشبه

في إحدى مدى الشاطىء الإغريقي ، كانت تعيش أميرة جميلة تُدعى « داناي » ، هي وابنها الوحيد الجميل پرسيوس ، الذي كتب عليه أن يحرم من صدر والده الحنون ، ذلك الوالد الذي طوحت به أسفاره ، فشط مزاره ، ولم يعد أحد يعرف أين انتهى قراره

ولقد كان هذا الوالد — فيما يظهر — على جانب عظيم من البأس وقوة الجانب ، حتى لقد فرح أهل المدينة لبعده فرحاً شديداً ؛ ولخوفهم من أن ينشأ طفله پرسيوس على وتيرته ، تآمروا فيما بينهم على نفيه هو وأمه من جزيرتهم في زورق صغير يدفعون به الى اليمّ ، والأمواج المتلاطمة كفيلة ، ثمة ، باجراء حكمها فيهما ..

يا للوحوش ! لقد أنفذ الأشقياء تدبيرهم ؛ وتناوحت الأمواج حول الزورق تقـذف به هاهنا وهاهنا ، والأم المسكينة تغالب أحزانها وتنسى مخاوفها ، فتغني لطفلها الراقد في حضنها ، وتدلله ، كي ينام ، وكي يكون بنجوة من فزع هذا البحر المصطخب

وبعد أن كان الموت المحقق قاب قوسين من هاتين الفريستين ، وبعد أن كانت كل موجة تشق للزورق قبراً في أعماق الماء ، شاءت العناية أن تُسخّر موجةً هائلة تدفع به ، في هوادة ورفق ، إلى ساحل جزيرة نائية في وسط المحيط . وهناك ، نزلت الأم الموهونة متهالكةً على نفسها ، حاملة وديعتها البريئة ، شاكية الى الآلهة صنع الانسان بالانسان . ولمحت في الأفق قرية متطامنة ، فيممت شطرها ، وما فتئت تتعثّر في خطاها حتى بلغتها . والشمس تتوارى بالحجاب

ورحب الناس بالضيفين البائسين ، لأن دينهم كان يأمرهم بإيواء أبناء السبيل ، وإكرام الغرباء واللاجئين ؛ فعاشا ناعمَين ، وشب پرسيوس سليماً من الآفات ، مُكتنز العضلات ، بادي الفتوة ، موفور القوة ، عذب اللسان ، مشبوب الجنان ، وأحبه الناس وأعجبوا به ، والتف الجميع حوله يُصغون الى أحاديثه العِذاب ،

لولا هوًى أجّجتِ في خافقي   ما صفتْ يوماً فيه أشعاري
أُحييتِ في قلبيَ مَيْتَ المنى   وهِجْتِ أحلامي وأسراري
. . أأنت من نارِ الحشا جمرةٌ؟   أم أنتِ مَلْآى بدمي الجاري!
أنَرْتِ هذا الرَّوضَ يا زَهْرتي   كما أنارَ الحبُّ أغواري
ألم يَكُنْ قلبي قُبَيْلَ الهوى   يا زَهرتي ، كالهَيْكَلِ العاري
كهفاً يَئِنُّ الحُزْنُ في جَوْفِهِ   أنينَ أرياحٍ وأوْتارِ
مستوحِشاً قفراً سوى عاصفٍ   للشكِّ ، يلهو فيـهِ ، موّارِ
كيفَ مُنىً لم يُبْقِ منها الأسى   غيرَ خيـــالاتٍ وآثارِ
حتّى إذا ما حلَّ فيهِ الهوى   مِنْ بَعدِ أحزانٍ وأكدارِ
تفتّحتْ أحلامُهُ بهجَــةً   تفتّحَ الزهرِ لآذارِ

* * *

إيه أمانيَ القلبِ ماذا تُرى   يُخفي لَكُنَّ الزمنُ الضاري ؟
أخشى عليكُنَّ غداً حالكاً   يجري بأسرارٍ وأقدارِ
عوّدني دهريَ خُلْفَ المُنى   وهـدمَ آمالي وأوطاري
هذا صباي الغضُّ ، وا لهفتا ،   كمْ مأملٍ لي فيـهِ مُنْهارِ
... ...
يا زهرةً بعـدَ طويلِ الأسى   جادتْ بها أفراحُ آذار
أيّ المُنى في القلبِ أيقظتِها   معسولةً ، بل أيّ تذكارِ ؟

دمشق   أمجد الطرابلسي

وقصصه الرطاب . . . وتسامع الكل به ، وترامت الى ملك الجزيرة أخباره ، فشغله انصراف الناس اليه ، وافتتانهم به ؛ وكان (قاتله الله) ، غيوراً رعديداً ، فآلى أن يكيد له ، ويدبر حيلة يقصيه بها عن طريقه ، ليطمئن على نفسه . . . وعرشه ؟

وكان فى إحدى الجزر النائية ثلاثة من الجُرْجون الضارية ، وهى أفزع ما جاء فى أساطير اليونان ، وكل من هذه الجرجون تِنّين هائل له رأس امرأة ، وبدان من النحاس الأصفر الصلب ، ذواتا أظافر حادة ، تنفذ فى أقسى المعادن وأصلبها ، وليس لها شعر فى رءوسها كما للنساء ، بل لها ، عوضاً عن الشعر ، حيات وأفاع ذات رؤوس مرعبة تنفث السم الزعاف . وقد أوتيت قوة خارقة ، لتستطيع إحداها أن تقصم جذع النخلة بضربة ضعيفة من ذنبها الجبار ! وليست هـذه الجرجون مخيفة بسمها وقوة بنيتها فحسب ، بل الأدهى والأمر ، هو هـــذا السر الدفين فى عيونها ؛ إذ كل من تجرُؤ على النظر الى هذه العيون ، يتحول فى الحال الى صنم من الحجارة لا يتحرك ، ولا يعى ! !

وكانت الجرجونة (ميدوسا) أفظع أنواع الجرجون جميعاً ، ولذا كانت أختاها الأخريان تحترمانها ، وتسهران على راحتها

ولـكن ماذا اعتزم الملك الجبار فى كل ذلك ؟ لقـد دبَّر أن يُغرىَ برسيوس بالذهاب الى جزيرة الجرجون لقتل (مدوسا) والاياب رأسها كأحسن هدية تقدم الى ملك . وكان هذا الرجل الخبيث يعلم تمام العلم أن مجرد محاولة الذهاب الى جزيرة الجرجون هو ضرب من الجنون لا يقدم عليـه إلا المأفونون ، فان نظرة واحدة من عين مدوسا كفيلة بوضع حد لـكل شىء

وأرسل الملك الى برسيوس فمثل بين يديه ، وطفق يكيل له المدح جزافاً ، ويبالغ فى الثناء على ما ترامى إليـه من أخباره ، وضروب شجاعته التى يتحدّث بها الجميع .

وامتلأ برســيوس ، الفتى ، زهواً ، وشاعت فى أعطافه الـكبرياء ، وراح هو بدوره يشكر للملك حلو ثنائه ، وجميـل إطرائه ، فما إن أدرك الملك ما بلغ ثناؤه من قلب برسيوس الغرير ، ونفسه الصغيرة ، حتى أخبره بما انتدبه له ؛ فقبل الفتى المسكين وهو لا يدرى ماهى هذه الجرجون ، ولا أين الجرجون ؟

* * *

وانطلق من فوره ، وأرسـل الملك من حاشيته من أبلغوه خارج الأسوار ، فى مهرجان فخم ، وموكب أنيق . ثم غربت الشمس فغُلّقت الأبواب ، وجلس برسيوس على صخرة عظيمة مشرفة على البحر يفكر فى هـذه الجرجون ، وينظر الى القمر يشرق من الاثباج ، فيفضض الموج ، ويحور به البحر رجرجاً من لُجين ! ويذكر فجأة أنه لم يودع أمه ، ولم يتزود منها قبلة أو دعاءً لهذا السفر الطويل . فيبكى . . . ويبكى بكاءً مراً !

وتصدع قلبه حينما خيل إليه أنه قد لا يعود اليها ، مع أنه عزاؤها الوحيد فى هذه الحياة !

وانتصف الليل !

وفيما هو يَغرق فى لجة الفكر ، تَشرق بواكف الدمع ، إذا بصوت رقيق يناديه من فوق الصخرة المقابلة : « برسيوس أيها العزيز ! فيم بكاؤك ؟ ولِمَ تذرف كل هذه الدموع ؟ لقد هِجْتَ الآلهة ، وأحزنت أرباب الأولمب ! » . ونظر برسيوس ليرى مَن صاحب هذا الصوت الرخيم الذى يناديه ، فعجب عجباً شديداً ! لقد رأى مخلوقا جميلاً مشرق الجبين ، يترقرق البِشْر فى وجهه ، لا يُعقل أن يكون بَشَراً ! يلبس فوق هامتـه قلنسوة ذات أرياش وأجنحة ، وفى قدميـه نعلان غريبتان يتصل بكل منهما جناح كجناح البازى ، وفى يده عصا سحرية تتلوى بطرفها الأعلى ثعابين وحيات ! !

على أن برسيوس لم يعلم أن الذى يتحدث اليه ، إن هو إلا الآلـه هِرْمز[1] رسول الآلهة بين السموات والأرض ، الذى لا يفوقه فى سرعته أحد

وبعد ، فلقد قص برسيوس قصـته على هرمز . وما فرغ منها ، حتى قال الآلـه له : « بُنى ! إنك مُقـدم على أمر جلل ، وشأن بعيد المدى ، صعب المنال . ولقد أراد الملك اهلاكك حين اختارك لهذه المهمة ، لأن أحدا لا يجسر على الذهاب الى جزيرة الجرجون إلا إذا كان أحمق أو مجنوناً ! ولـكن اصغ الى ! انك لابد فائز إذا عملت بوصاياى ، ولم تحد عما أشـير عليك به . وسأذهب عنك لحظة ، ثم أعود اليك بآلاء من الآلهة ، تقرب لك النُّجح ، وتسهل عليك كل شاق من أمرك . فانتظر » .

ورق هرمز ، ثم غاب فى السماء ، وبهت برسيوس حين رآه يطوى الأديم الفضى ، ويطرق أبواب أورانوس[2] !

* * *

وقص هرمز قصة صاحبه على الآلهة ، فرثت للفتى المسكين وتحركت فى قلوبها الرحمة المطوية ، التى طالمـا تهمر من السماء ،

(١) هرمز هو الذى يسميه الرومان ميركورى والعرب عطارد ، وهو قائد أرواح الموتى بين الدنيا والآخرة (٢) السماء

لتغسل آلام الأرض : وتعاهدت أن تؤازر برسيوس ، وتعده بكل ما يسهل عليه أشق أمره . فنزل بلوتو ، إله الموتى ، عن قلنسوته التي تخفي من يلبسها فلا يراه أحد ؛ وتبرعت مينرفا[1] بترسها الذي يحمي لابسه من حراب الأعداء ، وهو درع ثمين من الذهب الخالص ، يلمع لماناً شديداً ، حتى لينعكس المرئيات في صفحته ، كأنه السجنجل

وحمل هرمز المنحتين ، وعاد بهما الى حيث يجلس برسيوس فقدمهما اليه ، وزوده بجُرازه الملوي القاطع ، الذي ليس كمثله سيف ولا حسام . ومنحه نعليه المجنحتين ، اللتين تسبقان به الريح ، فلبسهما ثم قال له : « تلك يا برسيوس هدايا الآلهة أسبغها عليك . بيد أنه ينبغي قبل كل شيء أن تذهب معي إلى هذه الجزيرة القريبة حيث تقيم ثلاث إناث من السيكلوب ذوات العين الواحدة ، فتحتال عليهن حتى تعرف منهن موضع جزيرة الجرجون ، لأن أحداً من العالمين لا يدري أين موضعها بالضبط غير هؤلاء السيكلوب . سر إذن على بركة الآلهة في أثري ، واحترس لنفسك ، والسماء تكلؤك . »

وكم عجب برسيوس حين رآه يطير في إثر هرمز ، والبحر من تحتهما تتلاطم أمواجه ، ويعج عجيجه ، وهما من فوقه كالعصافير المهاجرة ، وحطا في الجزيرة المنشودة ، بعد أن دوما فوقها طويلاً . وكان ذلك بالقرب من كهف حالك ، في منحدر صخرة صعبة المرتقى . وقد لمح فيه برسيوس السيكلوب الثلاث ، بفضل ترس مينرفا الذي كان يعكس في صفحته كل ما في الجزيرة

إنها مخلوقات غريبة حقاً ، ليس كمثلها شيء في الآفاق ، شاذة في خلقها ، عجيبة في تنسيق جسمها ؛ وهي إناث على كل حال ، يعشن في هذه الجزيرة المشوشبة ، بعيدات عن العالم ، منزويات في هذا الركن السحيق من أركان الدنيا . وأغرب ما في أجسامهن من شذوذ ، أنهن ليس لهن أعين كما للناس ؛ ولكن لهن ، لثلاثتهن ، عين واحدة ! تركبها إحداهن لوقت معلوم ، في حفرة غائرة من جبينها ، حتى إذا انتهى الوقت وجاءت نوبة السيكلوبة الأخرى ، نزعت الأولى تلك العين وأعطتها للثانية ، وهذه تعطيها للثالثة بدورها ، وهكذا دواليك ، وبوساطة تلك العين العجيبة تستطيع السيكلوب رؤية أصغر شيء في أقصى جهات العالم ، من دون ما مشقة ولا عناء

(١) اسمها بالا أثينا في الميثولوجية اليونانية وقد آثرنا هذه التسمية الرومانية لذيوعها

وبعد أن زود هرمز صاحبه بوصايا غالية ، انتحى ناحية قريبة ، واختبأ برسيوس خلف شجرة باسقة : ولشد ما دهش إذ رأى إحدى السيكلوب تقود أختيها ، وفي جبينها العين العجيبة ترمق بها أصقاع العالم ، وتحدث أختيها عما ترى . وبعد قليل ثار نزاع بين الأخوات على العين ، كلٌّ تريد أن تأخذ نوبتها ، وكل تدعى أن الدور دورها . وفيما كانت الأولى تنزع العين ، وتوشك أن تعطيها للثانية ، انقض برسيوس فتلمها من السيكلوبة ، دون وعى منها !! لأنها بدون العين لا تستطيع أن ترى شيئاً في العالم . وينشب نزاع شديد بين السيكلوب على العين ، كل منهن تتهم أختها بأن العين معها وتدعى الانكار ، حتى وضع برسيوس حداً لتنازعهن ، بأن هتف بهن : « أيتها الأخوات العزيزات ، لا تنازعن على عينكن ، فهي في هذه اللحظة معي وبين يديّ . » وانقضّت السيكلوب هلمات نحو مصدر الصوت ، ولكن هيهات أن يقبضن على شخص يحمله نعلا هرمز ، فلقد قفز قفزة هائلة ، أقصى بها نفسه عنهن ، ثم قال : « أيتها الأخوات العزيزات ! أنا أعلم أنكن لا تستطعن الحياة بدون العين الغالية ، وأنا أعدكن ردها اليكن ، ولكن بشرط واحد : ذلك أن تخبرنني عن المكان الذي تأوى إليه (مدوسا) وأخواتها الجرجون ، فان لم تفعلن فلا عين لكن عندي . »

وهنا تميزت السيكلوب من الغيظ وكدن لا يجبن بشيء ، لأنهن منهيات عن إذاعة أسرار العالم ، ولكن إذاعة السر في هذه اللحظة أهون ألف مرة من هذا العمى المطلق ، والظلام المبين يغطش حياتهن ، فأخبرنه بموضع الجزيرة ومأوى الجرجون فيها ، ولكي يثق مما أنبأنه به نظر في العين التي بين يديه فرأى الجزيرة ، وأيقن أنهن لم يخننه ؛ ثم إنه تحين الفرصة اللائقة ودفع بالعين في جبهة أقرب السيكلوب منه وغاب في الجو ميمماً شطر هرمز ، حيث وجده يمرح في غيضة ناضرة ، فتعانقا عناقاً طويلاً ، وشكره برسيوس على جزيل مساعدته ، ثم افترقا على أن يبدأ برسيوس رحلته إلى جزيرة الجرجون

* * *

وكانت رحلة طويلة شاقة ، برغم نعلي هرمز . فكم بحار طوى ، وكم وهاد رأى ، وكم ريح صرصر كافح ، وكم مشقة احتمل ، حتى وصل الى جزيرة الجرجون ! ولم ينس ما أوصاه به هرمز من وجوب النظر إلى أعلى دائماً حتى لا تقع عيناه على

عيني إحدى الجرجون فيحور حجارة صماء . وكان يتخذ من درع ميترفا مرآة صافية يرى فيها ما تعج به الجزيرة من كهوف وزروع وغابات . ولشد ما سر سروراً لا مزيد عليه حين وجد الجرجون الثلاث مستغرقات في سبات عميق عند مدخل كهفهن السحيق . وفي وسطهن مدوسا العاتيـة . تغط غطيطاً مروعاً . فاستخار الآلهة ، وامتشق جراز هرمز ، وتعوّذ ثم تعوّذ ، ثم انقض كالصاعقة ، فأهوى على عنق مدوسا بضربة قاتلة ، انفصل بها الرأس عن سائر الجسد . وهنالك ، علا فحيح الأفاعي الباسقة في رأس مدوسا ، تدمدم في الكيس الجلدي الذي ألقاها برسيوس فيه، حتى لقد استيقظ أختاها ، وانطلقتا مرتاعتين في إثر الفتى ، تودان لو تمسكان به ، فتمصران عظامه اعتصاراً ... ولكن قلنسوة بلوتو تخفيه عنهما ، وتحفظه من شرهما

وبينما هو يطوي الضحاضح والبحار ، وبينما هو منتش بخمرة انتصاره ، مفكر في اللحظة التي يلقى فيها الملك ليريه رأس مدوسا ، ويحظى لديه بثمرة فوزه ، بينما هو كذلك ، إذا به يلمح في إحدى الجزر زحاماً شديداً ، وجماهير حاشدة ، متكبكبة حول صخرة ناتئة ، مشرفة على البحر ، وقد تدلت منها فتاة بارعة الجمال ، بادية الحسن ، مغلولة العنق ، مربوطة الأطراف بسلاسل وأصفاد من حديد صلب . ونظر فرأى تنيناً بحرياً هائلاً يطفو فوق الماء ، ويقترب من الفتاة قليلاً قليلاً ؛ وراعه أفزع الروع تلك الصرخة الهائلة التي صرختها الفتاة فرددت الغيران والكهوف ومشارف الجبال صداها

ماذا ؟ . . .

الفتاة مذعورة أيما ذعر ، والناس من حولها ينظرون ولا يحركون ساكناً . . . والتنين يقترب ويقترب . . . ؛ ولم ينتظر برسيوس حتى يفترس الوحش تلك الفتاة المفزعة ، بل استل جراز هرمز وانقض فوق ظهر التنين وأهوى على عنقه بضربات سريعة متلاحقة غاص بها في أحشائه ، ولبثا يتصارعان ساعة من الزمان كانت كلها هولا ، وكانت كلها فزعا ، والناس ينظرون مشدوهين ، زائغة أبصارهم ، لا يصدّقون ما يبصرون . ثم انجلت المعركة عن جثة التنين الضخمة طافية فوق الماء ، الذي تحول بدوره خضماً من الدماء . وقفز برسيوس إلى الشاطئ ، وذهب إلى الفتاة ففك أصفادها ، وهدأ من روعها ، وسأل الناس يقادوها إلى والدتها المسكينة المعذبة التي حبست نفسها في حجرة مظلمة ، وانتظرت ثمة من ينعى إليها ابنتها

أما هذه الأم ، فهي الغادة الأغريقية كاسيوبيا ، المشهورة بجمالها ، وحسن رُوائها ، والتي كانت أفتن حسان هيلاس في زمانها ، ولقد امتلأت زهواً بما أضفت عليها الآلهة من قسامة ، وما أسبغت عليها من وسامة ، فزعمت ، وهي تفاخر أترابها ، أنها أجمل من عرائس البحار التي لا يدانيها في جمالها الباقي ، جمال هذا البشر الفاني . فغضبت عرائس الماء ، لهذا الادعاء ، وأقسمن ليعذبنان أهل الجزيرة التي فيها كاسيوبيا بهذا التنين المروع الذي شرع يغدو كل يوم إلى شواطئ الجزيرة ، فيقتل ويلتهم عشرات من سكانها !

وذعر القوم ، وحاروا في أمر هذا التنين ، وذهبوا إلى الهيكل يقدمون قرابينهم للآلهة ، ويستوحون كهنتها نبوءة تبعد عنهم شره ، وتكفيهم أمره . ولقد أجيبت أدعيتهم ، وتقبلت أضحيتهم ؛ وأرهفت الأسماع ، وشمل الهيكل هذا السكون المقدس الرهيب ، وما هي إلا لحظة حتى انطلق صوت خفي من أعماق المذبح ، يقول : « قدّموا العذراء أندروميدا ، ابنة الغانية كاسيوبيا ؛ ضحية حلالاً لتنين البحر ، جزاء غرورها وكبريائها — ذلك إن أردتم أن يكف التنين عنكم شره ، ولا يعاود كم أذاه ! »

وانكفأ القوم محزونين مروعين ، لأنهم كانوا يحبون كاسيوبيا وابنتها ، حباً هو العبادة . وحاروا كيف يتقدمون للأم بهذا النبأ العظيم ؟ !

وكان لا بد من النفاذ ، لانقاذ الجزيرة وجميع سكانها . . .

والآن ، لقد أنقذ برسيوس أندروميدا الجميلة من براثن التنين ، وشعر في سويدائه بعاطفة نورانية تجذبه إلى هذه الفتاة ، وأحس كأن مستقبله مرتبط بمستقبلها برباط قدسي تباركه السماء وتحرسه العناية ؛ فتقدم إلى والدتها يطلب إليها يد أندروميدا

ووافقت الوالدة ، وسعدت الفتاة بهذا البطل الشاب الذي أنقذ حياتها مرتين : مرة من هذا الوحش الضاري الذي تركه برسيوس جثة هامدة ، ومرة ثانية من ذلك الشيخ الفاني الهرم الذي تقدم إليها يريدها زوجة له ، وكادت أمها تقسر على الموافقة لما للشيخ في الجزيرة من صولة وجبروت ، لولا المقادير التي تتابعت بعد ذلك

وأقيم مهرجان كبير ، وزينات فخمة للاحتفال بالعروسين ؛ فمدت الأخونة ، وأعدت الأسمطة ، وبدأت الموسيقى الأغريقية تعزف أشجى ألحانها ، وأخذ الجميع في قصف حلو وسمر بريء وإنهم لفي كل ذلك إذا بالرجل الهرم الذي تقدم لخطبة

أندروميدا من قبل ، يقتحم الحفل هو وعصبة قوية من رجاله المسلحين ، وإذا بالرجل يهتف ببرسيوس قائلاً : « برسيوس ! لقد اعتديت على مولى هذه الجزيرة اعتداءً صارخاً بانتزاعك أندروميدا من يدى ؛ وإنك إن لم تنزل عنها طواعية فسأكرهك على تركها قسراً ، بعد أن تروى هذه السيوف من دمائك ودماء من يلوذ بك ! . . . » . فحدجه برسيوس بنظرة ساخرة وقال : « من أنت أيها الرجل الذى يجسر على مخاطبتى بهذا الهراء ؟ لقد أصبحت أندروميدا زوجى ، وإن كانت من قبل خطيبتك ؛ أنت من غير ريب تحلم ... غير أنى أسألك : أين وليت وجهك يوم اضطرت أمها المسكينة أن تنزل عنها قرباناً للتنين ؟ لقد كان أولى بشجاعتك أنت ورجالك لو توليتم انقاذها من الأفعوان البحرى الذى أذلك وأذلهم . . . » ومد يده إلى الكيس الذى كان به رأس مدوسا ، فأخرجه وقال : « ولكن انظر إلى هذا قبل أن تقتلنى . » وما كاد الرجل ينظر إلى عينى مدوسا ، حتى تصلبت عضلاته ، وتحجر جسمه ، وظل مكانه كأنه تمثال ! ودهش أصحابه لجموده ، وظنوه قد تسمَّر حيث هو ، فلما لامسوه استطيرت ألبابهم ، ولاذوا من الفزع بالفرار

وأخفى برسيوس رأس مدوسا ، واستمر القوم فى سمرهم كأن لم يحدث شىء ... اللهم إلا هذا التمثال المنتصب فى أول ردهة ، والذى كان يهرف منذ لحظة ، فأصبح عبرة الزمان ، وضحكة الأيام !

وحان يوم الرحيل ، فخرج أهل الجزيرة يودعون الزوجين . وظلت كاسيوبيا تعانق برسيوس مرة ، وأندروميدا مرة أخرى . والدموع فيما بين هذه وتلك ، تنهمر على خديها انهماراً . . . . والناس ينظرون . . . ويبكون

ثم حمل برسيوس عروسه ، ومرق فى الهواء كالسهم . والقوم من عجب يتصايحون ويهتفون

***

وكانت الرحلة هذه المرة ، على شدتها وطولها ، من أروح الرحلات إلى قلب برسيوس . وتستطيع أن تتصور القبل الحلوة تنطبع على هذين الثغرين الحبيبين ، فى ملكوت السماء ، لتدرك أى سعادة شمرية ، وأى هنيهات سحرية ، فازا بها فى لازورد الفضاء .

وبلغ مدينة الملك بعد نأى طويل ، وسنين عدة ، فذهب أول ما ذهب إلى منزل أمه ، وناهيك عما كان من عناق ، وما تبودل من تحيات . وبكت داناى المسكينة وهى تهنىء ابنها بأندروميدا ، ثم أخذت تقص ، ملء أحزانها ، وفى فيض أشجانها ما انتابها من سوء ، وما لحقها من عسف ، لأنها أبت أن تكون خليلة الملك الخاتل الجبار ، الذى صب عليها جام نقمته ، وأذاقها من الهوان ألواناً ! فحزن برسيوس حزناً ممضاً ، وهيج حتى خيف عليه ، وذهب من فوره إلى قصر الملك بكل عتاده ؛ ودخل إلى البهو الملكى بدون استئذان ، وهو يضمر فى القلب غصة ، وفى النفس لوعة ، وفى الكيس رأس مدوسا ! !

وقال الملك حين لمح برسيوس : « هلا ! برسيوس ! لقد عدت أخيراً ، وما أحسبك وفيت بما قطعت على نفسك من عهود ! لعل شجاعتك التى بالغ الناس فى إطرائها والثناء عليها قد واتتك فى حربك مع الجرجون ؟ ! »

فأجاب برسيوس ، دون أن يحيى بالتحية الملكية : « أيها الملك ! لم تخاطبنى هكذا ولاتتريث حتى تنظر إن كنت قد عدت إليك برأس مدوسا الرهيب ؟ »

« فقهقه الملك ، وملأ التهكم شدقيه ، وقال : « طبعاً ، ستدعى أنك قتلت مدوسا ولكن رأسها وقع منك فى البحر ، فالتقمه الحوت ؟ . . . . يا للشباب المخدوع ؟ ! » .

وثارت ثائرة برسيوس ، ولم يجد إلى صبر من سبيل ، فحسر عن رأس مدوسا وقال : « أيها الملك . . . انظر ! »

وبهت الملك مكانه حين وقع بصره على عينى مدوسا ؛ ثم تحول فى لمحة إلى تمثال من الحجر ما يأتى بحركة ؛ ولا ينبس ببنت شفة ! !

وحدث عما شمل أهل الجزيرة من الفرح حين ترامت اليهم أخبار الملك ؛ وما تم له مع برسيوس . لقد كانوا يؤثرون الموت على أن يحكمهم مثل هذا الظالم العاتى المستهتر ، ولقد كانوا يودون له الهُلْك ، حتى خلصهم برسيوس منه ، فهرعوا إليه ، وهتفوا فى كل مكان باسمه ، وحملوه على الأعناق إلى حيث الملك التمثال وهناك ، صبوا لعناتهم على الطاغية ، وانصرفوا ، يهنىء بعضهم بعضاً ، بعد ان اختار لهم برسيوس ملكا منهم .... فاضلاً ، عادلاً ... وقد عرضوا عليه الملك فأبى ... لأن مملكته الكبيرة المكونة منه ومن أمه ، ومن أندروميدا كانت آثر لديه من كل ملك عتيد ! !

وتوجه إلى حيث لقى هرمز ، عند الصخرة المشرفة على البحر ، فوجده ينتظره ، فتعانقا عناقاً يفيض محبة ، ويقطر وداً ، ثم رد إليه هدايا الآلهة بالحمد والثناء . . .

أما رأس مدوسا ، فقد أهداها إلى منيرفا ، ففرحت بها فرحاً شديداً ، وهى إلى اليوم مركبة فى وسط ترسها ترهب بها أعداءها الألداء . . . . ؟

دريني خشبة

البريد الأدبي

احياء ذكرى الفيلسوف الطبيب موسى بن ميمون

لمرور ثمانمائة عام على ميلاد موسى بن ميمون أحد أقطاب الطب والعلم في عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي وفيلسوف اليهود الأكبر في العصور الأسلامية ورئيس الطائفة الأسرائيلية بالقاهرة والفسطاط ، ذلك الرجل الذي ترك أثراً خالداً في الفلسفة الأسرائيلية والطب العربي ، وكان واسطة الاتصال بين الحضارتين الشرقية والغربية

قررت جمعية المباحث الاسرائيلية بمصر إحياء ذكراه في ثلاث حفلات كبرى ، أولاها بإشراف الجامعة المصرية وتحت رعاية صاحب المعالي وزير المعارف العمومية ، وتقام بدار الأوبرا الملكية يوم الأثنين أول أبريل سنة ١٩٣٥ (اليوم) يفتتحها معالي الوزير نجيب بك الهلالي ثم حضرة صاحب السعادة علي باشا ابراهيم مدير الجامعة المصرية بالنيابة

ويخطب في هذه الحفلة الدكتور جورجي صبحي أستاذ التاريخ الطبي بكلية الطب عن مصنفات موسى بن ميمون الطبية . والعلامة الدكتور ماكس مايرهوف عن كتاب العقار لموسى ابن ميمون ، والأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الأسلامية بكلية الآداب عن موسى بن ميمون في نظر مؤرخي فلاسفة المسلمين ، والدكتور اسرائيل ولفنسون أستاذ اللغات السامية بدار العلوم العليا عن كتاب « دلالة الحائرين ومذهب موسى بن ميمون في الفلسفة » ويلقي في هذه المناسبة شاعر القطرين خليل بك مطران قصيدة رائعة ، ويختتم الحفلة صاحب السعادة يوسف قطاوي باشا رئيس جمعية المباحث الأسرائيلية بمصر

وأما الحفلتان الثانية والثالثة فعامتان

وجميع الخطب والقصائد التي تلقى في الحفلات الثلاث تجمع في كتاب واحد ينشر على نفقة الجمعية المذكورة

العيد الألفي للمتنبي

اعتزمت رابطة الأدب العربي بالقاهرة ، إقامة العيد الألفي لأبي الطيب المتنبي في خلال شهر رمضان المقبل عام ١٣٥٤ (ديسمبر سنة ١٩٣٥) تذكاراً لانقضاء ألف عام على وفاته

ويشمل برنامج هذا العيد اقامة مؤتمر أدبي عربي عام يبحث جوانب الأدب العربي قديمه وحديثه ، وما يجب أن يحاط به من العناية والاصلاح

ومن النواحي التي يوليها المؤتمر عنايته الخاصة :

ا — توحيد الثقافة الأدبية في البلاد العربية

ب — حدود التجديد في الأدب العربي

حـ — إصلاح مناهج الدراسة الأدبية

ى — الأدب النسوي

هـ — أدب الأطفال

و — أدب القصص

ز — أدب المسرح

ح — الأغاني والأناشيد

ويسر رابطة الأدب العربي أن يؤازرها الأدباء بحضورهم ، أو بإرسال ثمرة بحثهم ، عن المتنبي ، أو عن أحد أغراض المؤتمر لياقي في الحفل ويضم الى كتاب الذكرى

وترجو الرابطة أن يصل الرد الى لجنة تنظيم المؤتمر قبل آخر ربيع الثاني عام ١٣٥٤ (يوليو سنة ١٩٣٥)

ارفيوس وبوريدس

الآنسة أمينة شاكر فهمي — أسيوط

حوّل إليّ أستاذنا الجليل صاحب (الرسالة) كتابك الكريم الذي ذكرني بالقصاص وعنترة والرجل الذي أقسم لا يذوق طعاما حتى يخرج ابن شداد من سجنه ؛ وكان القصاص قد انتهى الى أسر عنترة ، ثم وعد السامعين الى الليلة المقبلة !

تسألينني يا أختاه هل لقي أرنيوس يوريدس بعد عودته الى هيدز روحاً بلا جسد ؟ فأجيبك أن نعم ؛ لأن الأرواح كلها تلتقي في هيدز ، فيما كان يزعم الأغريق القدماء

وتسألينني هل كان الأغريق يؤمنون بالحياة الآخرة ، واجتماع الأرواح وتعارفها بعد الموت ؟

ولعل من حسن التوفيق أن كنت أكتب فصلاً عن ديانات الشعوب الهيلانيّة عامة ، وعن مذهب الأرفزم خاصة ، ذلك المذهب الذي شاع بين اليونانيين فيما قبل القرن السادس (ق . م) ، وظلت آثاره قوية جلية في أكثر آداب الأغريق ، منذ هسيود شاعر الطبيعة الصداح ، حتى يوربيدز كبير ملاحدة التاريخ القديم . وإني أعدك بارسال هذا الفصل الى (الرسالة) ، وإن لم أكتبه للمصحف ، لأن فيه الرد الوافي الذي تطلبين

على أني أحسبك قد قرأت دانتي اليجيري ، فذكرتك أسطورة أرفيوس برحلته في الجحيم والمطهر والفردوس ، ليلقى ثمة حبيبته بياتريس

الأسطورة الأغريقيــة ، وكوميدية دانتي ، متشابهتان يا آنسة ؛ فالى اللقاء ، على صفحات الرسالة الغراء

دريني خشبة

بجماليون المثال

سيدي . . . . . صاحب « الرسالة »

قرأت في عدد « الرسالة » الأخير قصة « بجماليون المثّال » للأستاذ دريني ، فكانت حقاً رائعة . ولكن الأستاذ لم يكمل الأسطورة ، بل اكتفى بجزء منها . لأنني قرأت هذه الأسطورة نفسها في كتاب لا أذكره ولا أذكر كاتبه . ويغلب على ظني أنه لجبران خليل جبران

ومجمل القصة الكاملة أن بجماليون عشق تمثاله ، وطلب من فينوس أن تنفخ فيه الروح فاستجابت دعاءه ، وراعه أن رأى أمامه جسداً بشرياً لغادة بارعة الحسن . . . . إلى هنا انتهى الأستاذ ، وفاته أن يذكر أن هذا التمثال الحي : جالاتيا ، قد ألمّ بها مرض ملح أوشك أن يودي بحياتها ، فتملك بجماليون الرعب واليأس ، وذهب ليلاً إلى تمثله وأحضر إزميله ومنحته وأعملهما في جسم حبيبته المريضة فارتدت رخاماً كما كانت — خالدة كما أراد لها الخلود ، بعد أن أراد لها الحياة فدبت فيها الحياة —

ولعل هــذا الجزء الأخير من الأسطورة يكسبها روعة على روعتها فضلاً عن أنه يجعل لها مغزى بارعاً يرفعها إلى مصاف القصص الفلسفي فوق مكانتها في عالم الأساطير

شبرا زكي شنودة جندي

في الأكاديمية الفرنسية

عينت الأكاديمية الفرنسية يوم ٢٨ مارس الماضي لأجراء الانتخاب للكراسي الثلاثة التي خلت بوفاة الأب بريمون ، ومسيو لوي بارتو ، ومسيو رايمون بونكاريه . وقد خلا أخيراً كرسي جديد بوفاة المؤرخ الكبير لينوتر ، فصارت الكراسي الخالية أربعة ، وقد شهدت الأكاديمية في الأشهر الأخيرة انقلاباً عظيماً في تكوينهـا الجديد ، فذهبت منهـا فجأة بالوفاة عدة من الشخصيات البارزة ، مثل ليوتي وبارتو وبوانكاريه ؛ واندمجت فيها شخصيات جديدة عظيمة أيضاً ، مثل الماريشال فرانسيه دسبري الذي ملأ كرسي ليوتي ، والدوق دي بروجلي العلامة الأشهر . وفي مقدمة المرشحين للعضوية ، مسيو دومرج رئيس الجمهورية السابق إذ يرشح لكرسي بوانكاريه ، ومسيو جورج دوهامل ، وبيير ميل ، من أعلام الكتاب



كتاب عن مقاهى باريس

أجل كتاب عن مقاهى باريس صدر أخيراً بقلم مسيو فرانسوا فوسكا ، وعنوانه « باريس قريتى » Paris, mon vilage . وإنه لنوع طريف من الأدب أن يعنى كاتب بهذه الناحية من حياة مدينة عظيمة ؛ فكما أن باريس تزخر بمتاحفها وكنائسها وآثارها العظيمة ، فهى أيضاً تزهو وتتألق بمقاهيها ومنتدياتها الليلية . وقد تناول مسيو فوسكا فى كتابه صور المقاهى البارزية الشهيرة فى العهد المنقضى والعهد الحالى ، ووصفها وصف خبير طاف بأرجائها وتسكع فى أركانها ؛ فمن مقاهى بروكوب دى ديكلو ، والريجانس ، الى مقاصف الباليه رويال ، وسورس دى ڤرلين ، وقاشيت دى موريا ، وڤبير ، وبار دى لابيه ، وتوليه وغيرها الى منتديات اليوم ومعاهده . وهى صور تثير فى نفس البارزى الحق شجناً وذكريات عزيزة ، ولا سيما حين يتصفح أسماء وصوراً كانت بالأمس متألقة شهيرة ملء الأبصار والأسماع ، وكان يهرع اليها ويتخذ مكانه بها ويقضى فيها ساعات لذيذة ، قبل العشاء أو بعد المسرح ، ثم اختفت اليوم صورها وأنوارها القديمة المحبوبة لتفسح مكاناً لأنوارها الجديدة ؛ وأى بارزى حق لا يتأثر حين يستعرض ذكريات « قهوة الانكليز » (كافيه دزانجليه) الشهيرة التى كانت قطعة من حياة كثير من أقطاب السياسة والقلم فى أواخر القرن الماضى ، والتى أضحت أثراً بعد عين ، ثم « مقهى نابولتان » الذى غيرت معالمه ومظاهره ، وكذلك مقهى ڤبير وباردى لابيه . لقد ذهبت هذه المعاهد القديمة ، واكتسحها تيار التحول الحديث ، فأسبغ عليها تخطيطاً خشناً ، وأنواراً مؤذية ، وترفاً سخيفاً ، ورفع عنها ذلك الجو العائلى الذى كان يشعر به الرواد من قبل . بيد أنه ما زالت توجد طائفة من المقاهى القديمة ، الفرنسية حقاً ، وهذه ما زالت كعبة البارزيين المحافظين الذين يسحرهم المكان والمجلس بأكثر مما يسحرهم المأكول والمشروب

وينوه مسيو فوسكا فى كتابه بما كان لهذه المقاهى البارزية الشهيرة من أثر فى تكوين الأوساط الأدبية والفنية ؛ فقد كانت مقصد الكتاب والفنانين والشعراء من كل ضرب ، وكانت تجمعهم ، وكثيراً ما كانت مركزاً للحلقات الأدبية والفنية الشهيرة ، وكثيراً ما كانت مصدر الوحى لكاتب أو شاعر أو فنان . ومن ثم كان كتاب مسيو فوسكا قطعة اجتماعية أدبية فنية فياضة السحر والمتاع

كتاب عن الأبهاء الأدبية

صدر أخيراً بالفرنسية كتاب طريف فريد فى نوعه وموضوعه للسيدة مارى شكيفتش عنوانه « ذكريات عصر مضى » ، وفيه تتحدث المؤلفة عن حياة المجتمع وأبهاء الأدب والاجتماع قبل الحرب ، ولا ريب أن كثيراً من نواحى الحياة الاجتماعية قد تغير تغيراً عظيما ، وأصبحت تلك الحياة الذاهبة نكرة بالنسبة للجيل الحالى ، والحياة تتغير دائماً بلا ريب ، ولكن المرحلة التى استحالت إليها الحياة الاجتماعية بعد الحرب كانت سريعة عنيفة ، وكان الانقلاب ثورياً لم يتخذ أسلوب التطور المادى . فمن يقرأ كتاب السيدة شكيفتش من شباب العصر يكاد يعتقد أنه يقرأ عن مجتمع غاضت كل آثاره وكل ألوانه الأولى . على أنه مما يلاحظ أن الحياة الاجتماعية ولاسيما حياة الأبهاء الأدبية تسير أيضاً إلى تطور مستمر ؛ ولقد كان أولئك الذين عرفوا هذه الحياة أيام روسو ومدام ديبناى مثلاً ، ينكرونها بعد ذلك بنحو نصف قرن ، أيام عود الملوكية فى أوائل القرن التاسع عشر . وكان أولئك الذين عاصروا مدام ريكامييه وشاتو بريان وتذوقوا الحياة الاجتماعية الأدبية فى ذلك العصر يرون فى أطوارها وأساليبها التى اتخذتها فى عصر الامبراطورية الأولى حياة جديدة لم يعرفوها ؛ على أن هنالك ظاهرة يجب الالتفات إليها ، وهى أن صور الحياة العقلية فى ذاتها لم تتطور كثيراً من الوجهة الاجتماعية ؛ وفى وسعك أن تتصور أن الكتاب والمفكرين فى العصور الخالية كانوا يجتمعون فى حلقاتهم أو أبهائهم لمثل ما يجتمع له الكتاب والمفكرون فى عصرنا ؛ غير أن أساليب الاجتماع ذاته قد تغيرت ؛ وتبوأت المرأة فى العصور الحديثة مقامها اللائق فى الأبهاء الأدبية والحلقات الاجتماعية فنفثت فيها من نفوذها وسحرها ألواناً قوية أضحت

اليوم من أظهر خواصها الاجتماعية . وحياة الأبهاء الأدبية من أهم عناصر الحياة الفرنسية الاجتماعية فى جميع أطوارها الحديثة ؛ وإنك لتقرأ فى مذكرات سانت سيمون ، أو رسائل مدام سفنييه ما تقرأه اليوم فى ذكريات مدام شكيفتش من ألوان هذه الحياة الاجتماعية والأدبية الساحرة ، وقد لاحظ كاتب كبير بحق أن أهم ظاهرة فى الأدب الفرنسى هى أنه اجتماعى ، فكل ما فيه كلام عن المجتمع ، وكل ما فيه موجه اليه ، والحياة الفرنسية فى ذاتها تقوم على الاجتماع والروح الاجتماعية قبل كل شىء ؛ وسحر مؤلف مدام شكيفتش فى أنه يصور هذه الروح أقوى تصوير

جيته وفن الحياة

نعرف أن شاعر ألمانيا الأكبر « جيته » قد ترك فيما ترك محادثاته التى تملأ عشرة مجلدات ومذكراته اليومية ومراسلاته المديدة ؛ ومن الصعب اليوم ، فى عصر السرعة والحياة المثقلة ، أن يتفرغ المرء لقراءة هذه المجلدات المديدة وأن يستمرئ كل ما فيها من المعانى والصور ، ولكن كاتباً فرنسياً هو المسيو روبز داركور استطاع أن يدرس هذا التراث دراسة مستفيضة وأن يضع كتاباً بخلاصة دراسته بعنوان « جيته وفن الحياة » Goethe et L'art de Vivre ولم يحاول المؤلف فى كتابه أن يلخص تراث جيته أو يردده ، ولكنه يحاول أن يقدم للقارئ مجموعة الحكم والصور والمواعظ التى تتخلل تراث الشاعر الأكبر . وتسمية الكتاب بهذا العنوان ترجع إلى اللقب الذى يطلقه الألمان أنفسهم على جيته ، فهم يسمونه « فنان الحياة » Le benskünstire

والواقع أنه قلما يوجد بين عظماء الرجال من يضارع جيته فى حياته المنظمة المركزة حول غايات معينة ؛ فقد عاش جيته يحدوه إرادة راسخة فى أن يعرف وأن يشبع حاجات النفس وحاجات الخلق ، وأن يباعد بين نفسه وبين ما تتأذى منه ، وأن يرتفع بكرامته إلى الذرى ؛ وقد فطن جيته إلى ذلك النقص الاجتماعى الذى يبعثه تشبع الناس بفكرة حقوق الانسان نحو المجتمع ، وأدرك أن للانسان نحو نفسه حقوقاً خاصة ، هى أن يرتفع بخلاله وأن يسمى إلى الكمال ، وفى عصرنا لا يكاد يفطن المرء إلى هذا الواجب ، لأن مشاغل الحياة وحمى الشهوات البشرية تستغرق كل عنايته وتفكيره ؛ وقد كان جيته من أشد الناس عملاً وانشغالاً ، ولكنه لم ينس أن يعمل لنفسه من الناحية الخلقية والمعنوية ، وأن يكونها حسبما توحى به المثل العليا . غير أنك تشعر خلال هذه الصور الممتازة التى يقدمها اليك كفاح جيته فى سبيل الكمال بنقص بيّن ، هو ما تأنسه فى كل أقواله وأفعاله من ضروب الأثرة ؛ فقد كان يحرص على ألا يعكر حياته معكر ، وألا يثير عواطفه شئ ، حتى لا يضعف أمام النوازل والحوادث ؛ وهى فلسفة الجمود والقسوة التى تبعد كثيراً عن مثل الانسانية الرفيعة . هذه الصور والحقائق يدرسها مسيو داركور دراسة فياضة ممتعة ، ويقدم الينا حياة الشاعر الأكبر على ضوء المبادئ والفلسفة التى تكونت فيها

ذكرى يوهان باخ

تتأهب الدوائر الفنية والموسيقية فى ألمانيا وفى جميع أنحاء العالم للاحتفال بذكرى الموسيقى الأكبر يوهان سبستيان باخ Bach ، وذلك لمناسبة مرور مائتين وخمسين عاماً على مولده . وباخ من أعظم أبطال الفن والموسيقى لا فى ألمانيا وحدها ، ولكن فى العالم كله . وقد كان مولده فى مدينة إيزناخ سنة ١٦٨٥ ، من أسرة عرفت بمواهبها الموسيقية ، ونبغ منها أكثر من موسيقى كبير ، وقد كان لهذا الظرف أثره فى تربية باخ وفى تكوينه ، وظهر هيام باخ بالموسيقى مذ كان طفلاً فى العاشرة ، وكانت أسرته تخشى على مستقبله من هذا الهيام وتخفى عنه المؤلفات الموسيقية ، ولكن باخ كان يبحث عنها وينقلها لنفسه على ضوء القمر ، وكان للغلام صوت بديع لم يلبث أن استرعى الأنظار ، فعين مرتلاً فى مدرسة لينبرج ؛ ولما ساء صوته بعد ذلك عين عازفاً على القيثارة ؛ ثم ظهرت مواهبه الموسيقية بسرعة ، وكانت رائعة ، فاستدعى إلى بلاط فيمار وعين موسيقياً ملكياً ، وهنالك استطاع أن يدرس الموسيقى الايطالية ؛ ثم عين بعد ذلك عازفاً على « الأرغن » فى كنيسة ارنشتات ، ومن ذلك الحين أعنى مذ كان باخ فى نحو العشرين فقط ، أخذ فى وضع القطع الموسيقية ؛ وكانت أولى قطعه « رحيل أخى الفجائى » من أبدع ما عرف التأليف الموسيقى ، وقد استلهمها من رحيل أخيه عن وطنه ليلتحق بالجيش السويدى ، وتزوج باخ بابنة عمه ماريا بربارا ، وعاد بعد عامين أو ثلاثة إلى العمل فى بلاط فيمار ؛ وهنالك أقام نحو تسعة أعوام ، ووضع أبدع قطعه الموسيقية ، وتأثر فى دراسته بالأساتذة الايطاليين أعظم تأثر . وفى سنة ١٧٢٠ توفيت زوجته ماريا فتزوج من بعدها « أنا فلكنس » ، وكانت ذات مواهب موسيقية بديعة ، فعاونته فى عمله ؛ وفى ذلك الحين ابتدأ باخ بضع قطعه الشهيرة المعروفة



ترجمة نفسية تحليلية

٣ـ هو ذا تاريخ انسان ...!

للأستاذ خليل هنداوي

« ومع ذلك فكيف لى أن أكتب عن جبران من غير أن أذكر نفسى وقد كانت بيننا من القرابة ما كان ؟ » ميخائيل نعيمة

« الناقد الفنان يترك أثراً من نفسه فى شخصية من يحلله ، لأنه يحلل بنفسه ويفهم بنفسه »

« درسوا جبران فى غضون الكتاب ، ولم يدرسوا « نعيمة » وإنما فى الكتاب وجهان متلاصقان فى ناحية ، مفترقان فى ناحية ، لا يفترقان فى ناحية إلا ليجتمعا ، ولا يجتمعان إلا ليفترقا . . . »
« خ . هـ »

— ٢ —

وجه ميخائيل نعيمة

لنعيمة — فى كتاب جبران خليل جبران — وجه بادى الملامح مستقل النزعة ، يجب أن نفتش عنه كما نفتش عن وجه جبران ؛ ولا يكمل أحدهما إلا بالآخر . ففيه نعيمة الانسانى ونعيمة الشاعر ، ونعيمة المصور ، ونعيمة الناقد . لأنه ليس من أولئك الناقدين الجافين الذين يعجزون عن تمثيل شخصياتهم فيما يكتبون وفى أى نوع كتبوا ؛ ونعيمة صاحب فلسفة يعمل لها وصاحب مذهب اجتماعى يدور حوله ويؤمن به كل الايمان . قد أخذ جبران مثلاً له ، وألف من حياته رواية نفسية لفتى استحوذ عليه القلق ، وألم بخيوط تلك الحياة وحاكها بفلسفته الانسانية ، وبلغ به ما شاء أن يبلغه الى الفن الذى يترجمه صاحبه والناس الى قوة تنشط بهم من عقالات المعيشة المحدودة الى المعيشة التى لا تُحد . . . .

فلسفة نعيمة الانسانى

تكاد تطغى على كل تعاليمه موجة الانسانية التى لا تقيم بين بنى الانسان حدوداً وفواصل . فهنالك الانسانية المتصلة الشاملة المشتركة فى الألم والهناء ، الساخرة من هذه التقاليد التى فصلت بين أبناء الأصل الواحد . وإذا عدت الى فصله « تمخضت الفأرة فولدت جبلاً » عرفت ذلك العدو الذى فكك بين وشائج الانسانية الحقيقية ، وجاء بوشائج كاذبة مستعارة يبنى عليها حضارته الجديدة

ينظر نعيمة الى الحياة المتآلفة فى باطنها ، المتنافرة فى ظاهرها ، حيث يمتزج كل شىء بشىء ، ويتصل كل جزء بجزء ، ولا جزء يستطيع أن يفنى بالانفصال . يبشر « نعيمة » بهذه الدعوة الأنسانية التى يجد عروقها مفروسة فى الشرق ، والتى بشر بها

« بالتوابع » . ثم عين باخ أستاذاً للغناء فى مدرسة توماس فى ليزج ، وهنالك وضع معظم قطعه وأناشيده الغنائية ومنها أناشيد قصة « الآلام » ، وقدم فى ذلك الحين بعض قطعه إلى أوجستوس ملك سكسونية فأنعم عليه بلقب « مؤلف البلاط » . وفى سنة ١٧٤٧ زار فردريك الأكبر فى بوتسدام ونال عطفه ورعايته ، ثم أصيب باخ بضعف فى بصره انتهى بالعمى ، وعقب ذلك أصابه الصرع ؛ وكانت وفاته (سنة ١٧٥٠) . وكان باخ فوق نبوغه الباهر فى التأليف والموسيقى مخترعاً موسيقياً أيضاً ، ومن اختراعاته الوضع الأصبعى الحديث ، وتنظيم « البيانو » بحيث يتسع للعزف بجميع الأوضاع والأصوات

الشرق من أزمان . . . والأنسانية — فى اعتقاده — لا تفر من نفسها إلا الى نفسها — ولكن السامعين نداء أنفسهم قليل ! وهى لا تقسم طرقها إلا لتجد سبيلها الواحد ومحجتها الواحدة

فلسفة تحب العُرى النفسى المجرد والطبيعة السامية ، ألم يقل لى فى حديثى له « هـذا الجبل عارياً ما أجمله ! أحب كل عارٍ فى الحياة لأنه يظهر على الحياة بحقيقته » إن الحياة عارية والأنسانية عارية ، فلماذا نستر عريهما بأوهامنا وتقاليدنا ؟ والحياة جوهر عارٍ فلماذا نجعل منها مركباً تفرح لتركيبه عقولنا وتضل عنه أرواحنا ؟ « الحياة شركة شاملة للواحد فيها ما للكل ، وللكل ماللواحد . لأن الكل هو الواحد والواحد هو الكل . لكننا أفسدنا تلك الشركة بما أدخلناه عليها من روح الاستئثار والكسب عند ما جعلنا ثمناً لكل مبانيها التى لا تثمن[1] . . . »

وهذه الأنسانية المجردة التى يبشر بها « نعيمة » قد لا تروق للبعض لضيق آفاقهم ، ولأن عقولهم تزين لهم أن يطعنوا هذه الانسانية ويردوها مهزومة مجرحة . . . وقد تثبت هذه الانسانية أمام العقل ، لأن « نعيمة » يستمد هذه الانسانية من قلبه لا من عقله ، فهو يريد لها القلوب وعاء لا العقول . وقد جرب «نعيمه» كما جرب غيره أن يقف على غاية الحياة بعقله ، جرب كثيراً وتاه كثيراً لأنه كلما بلغ به عقله نقطة ، ضاعت عنه الثانية ، فليس له إلا مايبلغه أمامه ، وليس له من ورائه شيء ، سار به عقله الى سلسلة متناقضات يصارع بعضها بعضاً ويبنى بعضها بعضاً ، وأين سبيل النجاة أيها العقل ؟

وأخيراً يجد نعيمة سبيل النجاة فى واحة الخيال المنعتق من كابوس المقاييس الزمنية والمكانية والتفلت من قيود التقاليد . وجده فى الخيال ووجد إنسانيته فى الخيال ، يخاطبه الناس بعقولهم ويخاطبهم بخياله ووجدانه ، أما طريق الوصول إليه ، فهو الفن الذى يحمل صاحبه على جناحى الخيال الى تلك المعيشة التى لا تُحدُّ — من الانسان فى الله ، الى الله فى الانسان

فهو مع الحياة فى سلم أبدى ، لأن الحياة ظاهرة الجوهر ، لا تتمخض بالسوء ؛ وهب أنها تمخضت بسوء — كما تراه مداركنا — فهذا السوء سوء عندنا ، وليس بسوء عند الحياة ، الحياة التى تسعى وراء تحقيق غايتها ، وإنما الأجدر بنا أن نؤالف بين غايتنا وغاية الحياة ، لأن السعادة التامة الكاملة ، إنما تتم فى هذه الأُلفة ! وأنى لنا أن ندرك سبل الحياة وغايتها ؟

— ستدرك كل ذلك — أيها الانسان عند ما تصبح إلـهاً !

« ما أشفق الحياة على بناتها وعلى أبنائها ، فلا تضع فى حدقتى مخلوق من نورها أكثر مما يحتاجه ذلك المخلوق ليستدل على طريقه . ولا تودع ساقيه من قوتها أكثر مما يلزمه لقطع المسافة التى تخطها له » والانسان خلال ذلك مزهو بكبريائه ، تسول له ذاته أن يكون رب نفسه ، والحياة تشفق على هذه الربوبية الضعيفة وتمخضها كالآلام التى تمخض ولدها العاق المتألم

— ستعرف غايتى أيها الانسان عند ما تصبح إلـهاً !

(يتبع) خليل هنداوى

(١) من رسالة لنعيمة